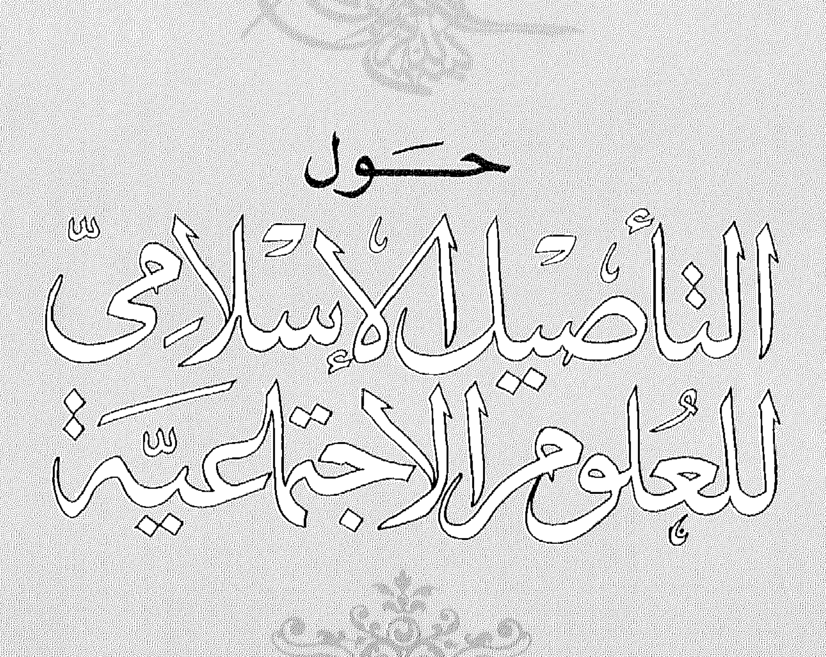


حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

محمد قطب

دار الشروق



حـــول

التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

محمد قطب

حول
التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

دار الشروق

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾

[سورة البقرة: ١٣٨]

صدق الله العظيم

مقـــدّمَة

لا تتسع هذه العجالة بطبيعة الحال لحديث مفصل عن التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية، فالموضوع واسع متشعب يشمل تخصصات مختلفة، ويحتاج الحديث المفصل فى أىٍّ منها إلى متخصص - أو متخصصين - يلمون بدقائقها، ويغوصون فى أعماقها، ويجلّون خوافيها . . مع تعدد مجالات النظر واختلاف زوايا الرصد فى كل علم من هذه العلوم.

إنما أردت من هذه العجالة أمرا أبسط من هذا بكثير، أشعر فى الوقت ذاته بأهميته، وأهمية توجيه النظر إليه، والاهتمام بشأنه.

أردت أولا أن أعرض فكرة سريعة عن «التأصيل الإسلامى»: ما هو؟ ما المقصود به؟ ما ضرورته بالنسبة لحياتنا الثقافية والفكرية، بل السياسية والاقتصادية والاجتماعية كذلك، وكلها أمور متداخلة فى الكيان النفسى والحياتى، وإن بدا لأول وهلة أن كلا منها منفصل عن الآخر بسبب تخصصه، واختلاف طرق البحث فيه.

ثم أردت بعد ذلك أن أعرض فكرة عامة عن المنهج الذى نحتاج إليه فى التأصيل الإسلامى لهذه العلوم، التى يجمعها - على الرغم من تخصصها، وتميز بعضها عن بعض - رابط مشترك، أو قاعدة مشتركة هى «الإنسان». فإذا حددنا: ما الإنسان ؟ ما تكوينه؟ ما حدود طاقاته؟ ما غاية وجوده؟ ما السنن التى تحكم حياته؟ فقد حددنا القاعدة المشتركة التى تلتقى عندها هذه العلوم جميعا وتتفرع عنها.

وكثيرا ما يوحى إلينا التخصص الدقيق - أو الغرور العلمى أحيانا - أن كلا من هذه العلوم عالم مستقل بذاته، متميز عن غيره تمام التميز. وهو وَهْمٌ يكذبه الواقع، وتكذبه النظرة الشاملة، التى لا تحجبها الجدران الكثيفة التى يقيمها كل علم من هذه العلوم حول نفسه، عن رؤية العناصر المشتركة التى تربط بينها جميعا، والمنطلق المشترك

الذى تصدر عنه، وهو الكيان الإنسانى المترابط، الذى لا تتفكك أجزاؤه فى أثناء حركته، ولا ينفصل بعضها عن بعض، وإن اختلفت اتجاهاته، واهتماماته، وألوان نشاطه، ما بين لحظة وأخرى على مدار حياته كلها من بدئها إلى نهايتها.

***

وغنى عن البيان أن العلوم الاجتماعية قد نمت وتأصلت فى أوربا فى ظل أجواء نفسية وفكرية معينة، أثرت فى توجيهها، وهى أجواء الصراع بين الكنيسة والعلم، أو بين الدين والحياة بصفة عامة، وأن هذا الصراع قد خلّف بصماته الواضحة عليها، فنشأت إما معادية للدين، أو فى القليل مبتعدة عنه، متنصلة من الاتصال به أو الاستمداد من وحيه. ثم أصبح هذا فى حس الناس هناك هو «المنهج العلمى» الذى يجب أن تسير عليه البحوث العلمية، والذى تعتبر أى مخالفة له خللا فى الفكر، ونقضا «للروح العلمية» و «الموضوعية» وإفساداً للبحث العلمى!!

وهذا الموقف الذى يقفه الغرب فى تناوله للعلوم الاجتماعية - وغيرها كذلك[1] - ليس موقفا علميا فى حقيقته، وإن ألبس ثوب العلم! إنما هو موقف وجدانى انفعالى فى الحقيقة، له أسبابه الكامنة فى مجرى حياتهم، وله تأثيره الخطير على «الحصيلة العلمية» التى أنتجها الغرب فى هذه العلوم، على الرغم مما بذل فى دراستها من جهد، وما استحدث فى دراستها من أدوات، وعلى الرغم من محاولة وضع «ضوابط علمية» للبحث!

إن العالِمَ الغربى يتوهم فى نفسه التجرد العلمى، والدقة الموضوعية، فى تناوله لهذه العلومَ، ولا يتنبه إلى أنه قد دخل الساحة بمقررات مسبقة، تؤثر - بوَعى أو بغير وعى - فى طريقة تناوله للموضوع، وفى النتائج التى يستخلصها من بحثه.. تلك المقررات هى وجوب إبعاد الدين وكل ما يستوحى منه إبعاداً كاملا من نطاق البحث! بل إنه يتصور أن اتخاذه هذا الموقف المسبق، والإصرار عليه، هو الواجب الذى تفرضه عليه طبيعة البحث العلمى، وأن مدى دقة النتائج المستخلصة، ومصداقيتها، متوقف على مدى إخلاصه فى أداء هذا الواجب «المقدس»!

---

(١) لم تخل دراسة العلوم البحتة من التأثر بهذا المنهج المعادى للدين، المتنصل منه، وأوضح مثال على ذلك نسبة الخلق والتدبير للطبيعة بدلا من الله! والزعم بأن هذا هو الأليق بالبحث العلمى!!

وهنا بالذات يفترق طريقنا عن طريقهم، أو يجب أن يفترق!

إن الظروف التى مرت بها أوربا وانتجت الانفصام بين العلم والدين، هى ظروف خاصة بأوربا وحدها، وليست ظروفا عالمية؛ والمعايير التى أنشأتها تلك الظروف هى كذلك معايير محلية خاصة، ليس لها صفة العموم، ولا صفة اللزوم. ليست معايير «إنسانية» كما يحلو لأوربا أن تتصورها، بدافع الغرور الذى أنشأه النجاح الحاضر للغرب، الذى جعله يتوهم أن الغرب هو العالم! وأن معاييره يجب أن تخضع لها البشرية كافة، وأن من اختلف عنها فهو المخطئ الذى ينبغى أن يعدّل موقفه، وينقاد إلى «المعيار الصحيح»!

أما نحن فنقول إن الظروف التى مر بها الغرب، وأنشأت له معاييره الخاصة، ليست هى ظروفنا التى عشناها فى ظل الإسلام، سواء فى فترة ازدهار الإسلام، وازدهار الحضارة الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية، أو فى ظل الانحسار الذى طرأ على العالم الإسلامى حتى أوصل الأمة إلى حضيضها الذى وصلت إليه، فصارت كما أخبر الرسول ﷺ «غثاء كغثاء السيل»، أو فى ظل الصحوة الإسلامية المباركة التى تبشر بالخير، رغم تكالب العالم كله على محاولة القضاء عليها.

فى جميع هذه الأحوال الثلاثة كانت ظروفنا مختلفة عن ظروف الغرب، فلا عجب أن تكون معاييرنا مختلفة عن معايير الغرب، وأن يكون تناولنا للعلوم الاجتماعية - وغيرها كذلك - مختلفا عن التناول الغربى فى أسسه وقواعده، وإن التقى معه فى بعض الجزئيات، أو حتى فى كثير من الجزئيات التى تتخذ صورة أبحاث معملية وتجريبية. ذلك أن الخلاف الجوهرى ليس فى إجراء التجارب المعملية ورصد نتائجها، إنما هو فى تفسير الظواهر الاجتماعية وتأصيلها، المستمد أساسا من تصورنا للكيان الإنسانى، ولغاية الوجود الإنسانى.. وهنا يقع الخلاف، وهنا يكمن الدافع إلى ضرورة التأصيل الإسلامى لهذه العلوم!

وفى الغربة الثانية للإسلام، التى أخبر عنها رسول الله ﷺ[1]، والتى نعايشها فى واقعنا المعاصر، فإن كثيراً من الناس من الذين درسوا هذه العلوم على طريقة الغرب

---

(١) قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ» أخرجه مسلم.

وتأثروا بها، يستنكرون هذه المحاولة، ويرون فيها خروجا عن «المنهج العلمى» الذى ينبغى اتباعه فى تناول هذه العلوم!

وقبل ظهور الصحوة الإسلامية لم يكن أحد من «المثقفين» يطيق مجرد الاستماع إلى الدعوة التى تهدف إلى إنتاج «أدب إسلامى» أو «اقتصاد إسلامى» أو «علم اجتماع إسلامى» أو «دراسات نفسية وتربوية إسلامية». . وكانت تبدو بالنسبة لهم خبلا لا يقدم عليه عاقل، وانحرافا خطيرا عن الجادة! ولكن وجود الصحوة أمرًا واقعا فى الحياة الإسلامية قد خفف كثيرا من العجب والاستنكار الذى كانت الدعوة تواجه به فى أول الأمر، وإن لم يخفف من الحرب الموجهة للدعوة على أمل تعويقها أو القضاء عليها!

وهدفنا من هذه العجالة أن نسهم إسهاما متواضعا فى إزالة الغربة عن الإسلام فى ميدان من ميادينه الأصيلة التى ينبغى للصحوة أن توجه إليها اهتمامها، وهو ميدان الفكر والثقافة، الذى يحاول أعداء الإسلام بكل جهدهم أن يمنعوا الإسلام من دخوله أو التمكن فيه! ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[١].

إننا نؤمن إيمانا راسخا بأن المستقبل للإسلام، وبأن كل المقاومة التى يقوم بها أعداء الإسلام لن تمنع تمكنه مرة أخرى فى واقع الأرض. .

بل نؤمن أكثر من ذلك بأن تحولا هائلا قد بدأ يأخذ سبيله فى الغرب ذاته، الذى يصدّر إلينا أفكاره المنحرفة، ويتبعه فيها من يتبعه ممن استولى الغزو الفكرى على قلوبهم وعقولهم. واستمع إلى هذه الكلمات الواضحة الدلالة من كلام الأمير تشارلس ولى عهد بريطانيا:

«ولكن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت فى العالم الغربى على أقل تقدير انقساما خطيرا فى طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا. فقد حاول العلم بسط احتكاره - بل سطوته المستبدة - على طريقة فهمنا للعالم، وانفصل الدين والعلم أحدهما عن الآخر، بحيث صرنا كما قال الشاعر «وردزورث» لا نرى إلا القليل فى أمنا الطبيعة التى نملكها. لقد سعى العلم إلى الاستيلاء على عالم الطبيعة من الخالق (سبحانه وتعالى) فجزأ الكون

---

(١) سورة التوبة [٣١].

إلى فرق، وأقصى «المقدس» إلى زاوية نائية ثانوية من ملكة الفهم عندنا وأبعده عن وجودنا العملى. والآن فقط بدأنا نقدر العواقب المدمرة لهذا الأمر . . »

ثم يقول: «إن الثقافة الإسلامية فى شكلها التراثى جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم، بطريقة لم نجدها نحن ـ خلال الأجيال الأخيرة فى الغرب ـ موائمة للتطبيق. وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامى فى هذا المضمار . . »

وفى الختام يقول: «إننا ـ نحن أبناء الغرب ـ نحتاج إلى معلمين مسلمين يعلموننا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا . . »[١]

إن الدلالة فى هذه الكلمات واضحة . . لقد بدأ بعض العقلاء فى الغرب يدركون مدى التدمير الذى أحدثه الفصام النكد بين الدين والعلم وبين الدين والحياة. وبدءوا يدركون أن المنهج الإسلامى فى هذا المجال هو المنهج الصحيح.

ولا يدفعنا الوهم أن نظن أن آثار هذا التحول ستطرق أبوابنا صباح الغد! فما زال بين جموع الناس فى الغرب وبين إدراك هذه الحقائق فجوة لا يعلم مداها إلا الله. وما زال بين الغرب الصليبى وبين الإسلام من العداء التقليدى ما تحتاج إزالته إلى جهود لا يعلم مداها إلا الله . .

ولكن تبقى الدلالة واضحة بالنسبة للمستقبل . .

المستقبل للإسلام . .

ومقتضى ذلك أن ندرك أن التأصيل الإسلامى للمعرفة ـ فى جميع مجالاتها ـ ليس حاجة للمسلمين وحدهم فى واقعهم المعاصر، إنما هو أمر لازم للبشرية كلها، ليخرجها من الظلمات إلى النور.

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[٢] وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما

---

(١) عن جريدة الشرق الأوسط، العدد ٦٥٩٢ بتاريخ ١٥ / ١٢ / ١٩٩٦.

(٢) أى أنهم اختلفوا فبعث الله النبيين . .

جاءتهم البينات فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1].

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وممن يهتدون بكتابك إلى الصراط المستقيم.

محمد قطب

---

(١) سورة البقرة [٢١٣].

ظروف أوربا

من المعلوم عند المؤرخين والمفكرين الأوربيين أن الدين الذى اعتنقته أوربا لم يكن هو الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام، إنما هو الدين الذى نشره بولس فى أرجاء الغرب، وإن كان قد نسبه إلى المسيح!

استمع إلى المؤرخ الإنجليزى «ويلز» حين يقول:

«وظهر للوقت (أى فى الوقت ذاته) معلم آخر عظيم، يعده كثير من الثقات المعاصرين المؤسس الحقيقى للمسيحية، وهو شاول الطرسوسى أو بولس. . والراجح أنه يهودى المولد، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك. ولا مراء فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود، بيد أنه كان متبحراً فى لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية. . وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلينستية، وبأساليب الرواقيين. كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل. . ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية، إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية. . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم، ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة. فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية، أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة: ديانة الكاهن والمذبح، وسفك الدماء لاسترضاء الإله»[1]

ويقول المؤرخ الإنجليزى «فشر»:

«إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعًا من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات، بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة،

---

(١) ويلز، «معالم تاريخ الإنسانية» ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ج ٣ ص ٧٠٥.

الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها»[1]!

ويقول «رينان» الفيلسوف الفرنسي:

«إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام. ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم. وبولس كما لا يخفى كان رسولا للأمم، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية... وإن أولئك الشراح يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة. ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار: موسى، والزبور، وأعمال الرسل، ورسائلهم، وتآليف آباء الكنيسة. مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله»[2].

ويقول «برنتون»:

«إن المسيحية الظافرة فى مجمع نيقية - وهى العقيدة الرسمية فى أعظم إمبراطورية فى العالم - مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فى الجليل[3]. ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائى عن العقيدة المسيحية، لخرج من ذلك قطعا، لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا»![4].

ولم يكن هذا هو التحريف الوحيد الذى حدث فى رسالة المسيح عليه السلام.

إن كل دين منزل من عند الله - والنصرانية ليست بدعا من ذلك - كان عقيدة وشريعة وتعاليم ربانية لتنظيم الحياة فى شتى مجالاتها.

---

(١) فشر، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ج ١ ص ٨٠ من الترجمة العربية.

(٢) عن «محاضرات فى النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة، ص ٢١٥. طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، سنة ١٤٠٤ هـ.

(٣) أى المسيحية الأولى كما جاء فى كلام الكاتب بعد ذلك.

(٤) جرين برنتون، فى كتاب «أفكار ورجال» ترجمة محمود محمود، ص ٢٠٧.

ولكن النصرانية التى نشرها بولس فى أرجاء أوربا كانت عقيدة بلا شريعة، إلا ما كان متعلقا منها «بالأحوال الخاصة» من زواج وطلاق[1] وعلاقات أسرية. وبقى التشريع المهيمن على الحياة فى ربوع الإمبراطورية الرومانية هو القانون الرومانى، لا قانون السماء، بكل ما فى القانون الرومانى من رق وإقطاع وطبقية وحرمان للمرأة من الكرامة الإنسانية.

وقد يكون مفهوما أن تعجز الكنيسة فى قرونها الثلاثة الأولى عن تطبيق الشريعة الربانية لكونها نشأت فى ظل الإمبراطورية الرومانية الطاغية، ولم يكن لها عليها سلطان، بل كانت منبوذة مطاردة مضطهدة. أما أن يستمر عدم تطبيق الشريعة (إلا فى ذلك المجال الضيق، مجال الأحوال الشخصية) بعد أن سيطرت الكنيسة سيطرة كاملة على الدولة بعد دخول قسطنطين فى النصرانية فى القرن الرابع، فأمر غير مفهوم - لنا على الأقل - إذ كان الأباطرة خاضعين تماما لنفوذ رجال الدين لا يملكون أن يعصوا لهم أمرا فيما بين القرن الرابع والقرن الثانى عشر على أقل تقدير، ولو أمروا بتطبيق الشريعة لطبقوها!

وحين يخلو الدين من التشريع، ويصبح عقيدة فحسب، فإن علماءه وفقهاءه يتحولون إلى «رجال دين» أى إلى «كهنة»، وسرعان ما يتحول الكهنة إلى وسطاء بين العبد والرب، وتكون لهم قداسة، ويكون لهم على قلوب الناس سلطان.. فيبدأ الطغيان!

وحدِّث عن طغيان الكنيسة الأوربية ولا حرج!

لقد انتقل الطغيان من المجال الروحى - الذى بدأ منه نتيجة خلو الدين من الشريعة وتمثله فى العقيدة وحدها وما يتعلق بها من الأخلاقيات - فشمل كل مجالات الحياة واحدا بعد الآخر، فأضاف إلى الطغيان الروحى الذى يحتكر الوساطة بين العبد والرب، طغيانا ماليا يشمل العشور والإتاوات والتركات وسخرة العمل الإجبارى فى حقول الكنيسة يوم الأحد مجانا بلا مقابل! وطغيانا فكريا يحرّم على العقل أن يفكر لكى لا يزيغ عن «العقيدة!»، وطغيانا سياسيا يخضع الأباطرة لسيطرة البابوات

(١) تحرم الكاثوليكية الطلاق ولكنها تبيح التفرقة الجسدية بين الزوجين فى حالة «الخيانة الزوجية».

وأهوائهم وشهواتهم، وطغيانا علميا يقف في وجه النظريات العلمية، ويحرّق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض، وبأن الأرض ليست مركز الكون!

وذلك كله بالإضافة إلى فضائح الأديرة وفساد رجال الدين ومهزلة صكوك الغفران ومحاكم التفتيش ووقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح[1]!

***

ماذا كان يتوقع من الناس حين تصبح الأمور على هذا النحو؟

ألم يكن منطقيا أن يتمرد الناس - بعضهم على الأقل - على هذا الدين، وعلى الكنيسة، أداة الطغيان الكبرى التي تذل الناس لسلطانها باسم الدين؟!

بلى! وقد وقع ذلك بالفعل..

وخلال قرون متوالية احتدم الصراع بين رجال الدين وفئات متزايدة من المجتمع: العلماء و«المفكرين الأحرار» والأباطرة وغيرهم وغيرهم، حتى حدث الانفجار المدوى في الثورة الفرنسية التي كان من بين شعاراتها: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس! وظهرت «العلمانية» على السطح، بمعنى إبعاد نفوذ رجال الدين عن مجالات الحياة المختلفة بدءا بالسياسة، ثم الاقتصاد، ثم الفكر، ثم العلم، ثم الأدب والفن، ثم الأخلاق!

***

من وجهة نظرنا الإسلامية نقول إن «العلمانية» كانت موجودة دائما في الحياة الأوروبية من أول لحظة إلى آخر لحظة! ولكن الكتاب الأوروبيين لا يعتبرونها قامت إلا حين اقتصر نفوذ رجال الدين على عالم الروح والآخرة، وتركوا «السلطة الزمنية» للأباطرة، أي حين انقسمت السلطة التي كانت كلها - بشقيها - في يد «الحكومة الثيوقراطية» إلى سلطة روحية وسلطة زمنية منفصلتين، يتولى كلا منهما فريق غير الفريق الآخر، ولا يتدخل أيهما في شئون الآخر.

العلمانية قائمة - من وجهة نظرنا الإسلامية - منذ لم تطبق الشريعة الربانية، أي منذ أول لحظة اعتنقت فيها أوربا النصرانية، على الرغم من وجود «الحكومة الثيوقراطية»،

(١) اقرأ إن شئت فصل «الدين والكنيسة» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

فقد كانت تلك الحكومة هى حكومة «رجال الدين» ولم تكن حكومة دينية، مادامت لا تطبق شريعة الدين. وبيان هذه الحقيقة مهم لتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة التى تطلق اسم الحكومة الثيوقراطية على الحكومة الإسلامية التى تطبق الشريعة الربانية لتنفر الناس من تطبيق الشريعة حين يتذكرون انحرافات «الحكومة الثيوقراطية» الأوربية ومظالمها، وحجرها على العقول، وجمودها، وجهالتها، وإفسادها لكل مجالات الحياة!

***

والآن فلنلخص قضية الدين والحياة فى أوربا تلخيصا يلقى الضوء على موقف أوربا الحاضر من الدين.

إن هذا الدين فى صورته الربانية التى أنزل بها كانت له مهمة معينة يؤديها فى فترة معينة.

أما المهمة فكانت إصلاح أحوال بنى إسرائيل المتدنية إلى أقصى درجات الانحطاط. وأما الفترة الزمنية فكانت ممتدة إلى وقت بعثة الرسول الخاتم ﷺ بالدين الكامل الموجّه للبشرية كافة.

يقول تعالى فى محكم آياته:

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين* قالت ربِّ أنَّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون* إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾[1].

(١) سورة آل عمران [٤٥ ـ ٥١].

كان بنو إسرائيل قد فسدت حياتهم بعبادة الذهب وأخذ الربا وقسوة القلب وتحريف الشريعة وارتكاب الآثام:

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾؟[١].

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾[٢]

لهؤلاء أرسل المسيح عليه السلام بجرعة روحية هائلة، لتعالج المادية المفرطة وقسوة القلب والتكالب على الحياة الدنيا، وارتكاب الآثام والإفساد فى الأرض. . فاتبعه من اتبعه من بنى إسرائيل وكفر به منهم من كفر، وهم الأكثرية كما توحى هذه الآيات الكريمة من كتاب الله:

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا* فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾[٣].

ولكن الجرعة الروحية الضخمة التى تنزلت بها رسالة المسيح عليه السلام لمعالجة المادية الطاغية وقسوة القلوب فى بنى إسرائيل، حين حولت إلى «منهج حياة» للأمم تحولت إلى رهبانية هائلة، زاهدة فى الحياة الدنيا، معرضة عن كل متاعها، محقّرة لها، منكرة لكل نشاط يبذل فيها!

---

(١) سورة الأعراف [١٦٩].

(٢) سورة المائدة [١٣].

(٣) سورة النساء [١٥٥ - ١٦١].

﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم.. ﴾[1] .

والله العليم الحكيم، لم يكتب الرهبانية عليهم ولا على غيرهم، لأنه يعلم سبحانه أنها لا تصلح منهجا للحياة، ولا تحقق الغاية من خلق الإنسان، الذى خلقه الله ليكون «خليفة» فى الأرض، ساعيا فيها، معمرا لها، مهيمنا على مجالاتها بما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض:

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[2] .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[3] .

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه.. ﴾[4] .

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾[5] .

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[6] .

ومن أجل القيام بمهمة الخلافة، وعمارة الأرض، والسعى فى مناكبها، أودع الله الفطرة دوافع موّارة، تدفع الإنسان دفعا إلى النشاط والحركة، وجعلها عميقة فى الفطرة:

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[7] .

وقال علماء التفسير إن هذه الدوافع إذا استخدمت فيما أحل الله فالتزيين من عند الله. أما إذا استخدمت فى معصية الله فالتزيين من الشيطان. فهى ليست فاسدة فى

(١) سورة الحديد [٢٧].
(٢) سورة البقرة [٣٠].
(٣) سورة هود [٦١].
(٤) سورة الملك [١٥].
(٥) سورة الجاثية [١٣].
(٦) سورة الأعراف [٣٢].
(٧) سورة آل عمران [١٤].

ذاتها، بل هي مغروسة في الفطرة لحكمة يريدها الله، لتكون عونا للإنسان للقيام بدوره في الحياة الدنيا، ما دامت ملتزمة بحدود الله. والرسول ﷺ يؤكد ذلك حين يقول للذين تركوا متاع الأرض إعراضا عنه، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثاني وأما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء. فقال عليه الصلاة: «ألا إني لأتقاكم لله، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)].

ولكن الذين تلقوا الدفعة الروحانية الغالبة ـ التي أنزلت لعلاج مادية اليهود وقسوة قلوبهم ـ فجعلوها منهج حياة لهم، فإنهم من جهة عطلوا دفعة الحياة، ومن جهة أخرى لم يستطيعوا الاستقامة بها فلم يرعوها حق رعايتها:

﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله[(٢)] فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾[(٣)].

والفسق الذي تشير إليه الآية الكريمة يملأ مجلدات ضخمة من تاريخ الكنيسة سجلت وصول الحالة الخلقية في الأديرة إلى درجة من الإسفاف يتعفف عنها الشخص العادي، سواء بين الرجال بعضهم وبعض، أو بين النساء بعضهن وبعض، أو في السراديب الخفية التي حفرت بين أديرة الرجال وأديرة النساء للاتصال المحرم بين الرهبان والراهبات!!

أما تعطيل دفعة الحياة فواضح فيما كان في العصور الوسطى المظلمة في أوربا من جهل وتأخر وانغلاق..

***

ولم يقف السوء الذي أحدثه احتقار الحياة الدنيا وازدراؤها عند هذا الحد ـ وهو في ذاته مفسد ـ ولكنه تجاوز ذلك إلى «الإنسان» ذاته، الراغب بطبعه في متاع الحياة الدنيا!

لقد كانت نظرة مسيحية القرون الوسطى إلى الإنسان أنه خاطئ بطبعه، هابط بشهواته، لا أمل في رفعه من هبوطه طالما هذه الشهوات مركبة في طبعه ـ إلا أن يكبتها ويجتثها من جذورها.

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) أي ما كتبنا عليهم إلا أن يبتغوا رضوان الله أو ما قبلناها منهم إلا لأنهم ابتغوا بها رضوان الله.
(٣) سورة الحديد [٢٧].

وامتزجت هذه النظرة ـ عقديا ـ بعدة أمور ، كلها خطير ، وإن كانت خطورتها لم تتبد لأصحابها فى حينها !

فمن ناحية امتزج تقديس الرب وتعظيمه فى حسهم بتحقير الإنسان فى المقابل ! كأنما الألوهية والعبودية طرفان فى معادلة ، لا يرتفع أحدهما إلا بإسقاط الآخر .[1]

ومن ناحية ثانية لم يعد الأمل فى «الخلاص» ممكنا عن طريق «الأعمال» التى يقوم بها الإنسان ، مادام خاطئا بطبعه ، ولا سبيل إلى تنقيته وترقيته طالما جرثومة الخطيئة فى دمائه . إنما يجىء الخلاص من «الاعتقاد» فى الرب المخلص يسوع ، الذى إذا آمن به الإنسان ربا ومخلّصًا تغفر له خطاياه .

ومن ناحية ثالثة انصرف اهتمامهم عن تحقيق «ملكوت الرب» فى الحياة الدنيا على اعتبار أن هذا عمل ميئوس منه ، إنما يتحقق ملكوت الرب فى الآخرة وحدها ، كما أشار ولفرد كانتول سميث فى مقدمة كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History» وهو يعقد موازنة بين رؤية المسلم ورؤية المسيحى للتاريخ ، إذ يقول : إن المسلم يرى أن تحقيق ملكوت الرب يكون بإطاعة شريعته وتطبيقها فى الحياة الدنيا ، ولهذا يسعى أن يجعل سلوك الفرد وسلوك المجتمع مطابقا للشريعة ، ويرى أن النجاح فى الحياة الدنيا لا يتأتى إلا بتحقيق «ملكوت الرب» فى هذه الحياة . بينما يشعر المسيحى أن مهمة تقويم المجتمع أمر خارج عن اختصاصه ! إنما هو يسعى إلى الخلاص الفردى ، كل فرد بمفرده . كما أن صورة المجتمع ، ونجاحه أو فشله أمر خارج عن نطاق العقيدة ! بل إن كثيرا من المسيحيين الأتقياء ينظرون إلى النجاح فى الحياة الدنيا على أنه فتنة تصرف الإنسان عن طريق الخلاص ، وأن الابتهاج بالنجاح الدنيوى خطيئة يجب أن يتخلص منها الإنسان ولا يسمح لها بأن تتملكه !

لذلك انحصرت فكرة الخلاص فى التوجه إلى الآخرة عن طريق الإيمان بيسوع المسيح ربا ومخلّصًا ـ مع إهمال الحياة الدنيا يأسا من إصلاحها إضافة إلى الزهد فيها ـ فتحول الدين بذلك إلى دين أخروى ، لا يلتفت إلى الحياة الدنيا ولا يسعى لإصلاح أحوالها ، وإقامة العدل فيها ، والجهاد من أجل ترسيخ هذه القيم وتمكينها ، مع الرضى فى الوقت ذاته بالألم والشقاء فى الحياة الدنيا طمعا فى الوصول إلى الملكوت !

---

(١) وسنرى خطورة هذه النظرة حين حدث «الانقلاب» الأوربى ، فمجّد الإنسان وأسقط الإله !!

ولا ننسى أن الكنيسة قد استخدمت هذه الروح ـ التى تأصلت عندهم تأصلا عقديا ـ في مقاومة حركات الإصلاح حين جاء أوانها فى أوربا، وتخذيل الناس عن الثورة على الظلم الواقع عليهم، بدعوى أن الرضى بالظلم والألم والشقاء هو الذى يؤهل الناس لنيل الملكوت فى الآخرة! مما جعل ماركس يقول قولته المشهورة: «الدين أفيون الشعوب». وهى قولة صادقة على دين الكنيسة الأوربية فى العصور الوسطى، حيث كانت الكنيسة تخدر الجماهير بالدين لكيلا يثوروا على الإقطاع. وكان هذا منها دفاعا عن وجودها الذاتى فى الواقع، إذ كانت الكنيسة منذ زمن قد أصبحت من ذوات الإقطاع، فلم يكن يعقل أن تشجع الناس على الثورة على الإقطاع!

***

ومن جهة أخرى آمنت الكنيسة بتصور خاطئ للحياة البشرية، بثته فى نفوس أتباعها، وعمقته فى إحساسهم، مبنى على فكرة الثبات المطلق فى كل شىء. فقد وضع الإله نظاما ثابتا للكون المادى بشمسه وأرضه ونجومه وسمواته، ونظاما ثابتا للحياة البشرية كذلك. وكما أن الأفلاك منتظمة فى حركتها على نظام ثابت لا يتغير، فكذلك الحياة البشرية ينبغى أن تجرى على نظام ثابت لا يتغير ـ لأنه من إرادة الله الثابتة ـ وهو نظام يقسم الناس إلى طبقتين رئيسيتين: رجال الدين ورجال الإقطاع والملوك والأباطرة من جانب، والشعب من جانب آخر. الطبقة الأولى تستمتع بالغنى والسلطان وملذات الحياة الدنيا، والطبقة الثانية تقوم بالخدمات المطلوبة لهؤلاء، وتعيش عيشة الكفاف، وتكدح ليلها ونهارها، وليس لها من متاع الحياة الدنيا شىء يذكر، ولكن ينتظرها نعيم الآخرة، مادامت تؤمن بالمخلّص، وتصبر على الابتلاء.

وكان لذلك التصور أثره ـ ولا شك ـ فى الجمود الذى اتسمت به الحياة الأوربية فى عصورها الوسطى المظلمة!

***

ولكن الطامة الكبرى كانت مصادمة العلم بالدين، وتحريق العلماء أحياء لأنهم قالوا بكروية الأرض، وبأن الأرض ليست مركز الكون! لقد كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير!

فإذا كان من حق الكنيسة - من حيث المبدأ - أن توجه سلوكيات الناس وأخلاقياتهم وعقائدهم، وأن تحدد للناس حلالهم وحرامهم[1]، فلم يكن من المستساغ - لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع - أن تتدخل فى النظريات العلمية فتخطّئها أو تصوّبها باسم الدين.

أما من حيث المبدأ فإن التوراة والأناجيل التى اعتمدت عليها الكنيسة - حتى على فرض صحتها وعدم تحريفها - هى كتب للهداية وليست كتبا للنظريات العلمية. فقد ترك الله مجال العلم للعقل البشرى بعد أن أمده بالحواس المعينة له، وبالقدرة على الملاحظة والتجريب والقياس والاستنباط. وإنما اختص الوحى بما لا يستطيع الإنسان من ذات نفسه أن يصل فيه إلى اليقين، بينما هو فى حاجة إلى المعرفة اليقينية بشأنه لتستقيم حياته فى الدنيا والآخرة، كتوحيد الله سبحانه وتعالى، وخبر البعث والمعاد والحساب والجزاء، ومعرفة الحلال والحرام، والمعايير التى ينبغى أن تحكم الحياة..

وأما من حيث الواقع فإن رجال الدين ما كانوا رجال علم، ولا زعموا لأنفسهم أنهم تمرسوا بالعلوم، بل كان كثير منهم - باعتراف كتابهم ومؤرخيهم - يعتبرون فى عداد الجهلاء!

لذلك كان تعرض الكنيسة للنظريات العلمية باسم الدين أمرا فى غاية الغرابة، كما كان تعقبها للعلماء بالحرق والتهديد به أمرا فى غاية الفظاظة والوحشية، ومنذرا بعواقب وخيمة لا يقف شرها عند حد!

يقولون فى كتاباتهم إن الكنيسة وقفت هذا الموقف من العلم والعلماء لأن نفوذها كان قائما على الخرافة، وأنها خشيت لو انتشر العلم وقوّض الخرافة أن يتقوض سلطانها على قلوب الناس.

وهذا حق.. ولكنهم يخفون - عن عمد - حقيقة أخرى ذات أهمية خاصة، هى أن العلوم التى اعتنقها العلماء ونادوا بها كانت فى أصولها **علوما إسلامية**، تعلمها علماؤهم حين تتلمذوا على كتب العلوم الإسلامية. وقد كانت تعنى فى نظر الكنيسة غزوا فكريا إسلاميا يهدد كيانها، وسيطرتها على الناس. لذلك كانت حربها لها حربا

(١) استخدمت الكنيسة هذا الحق استخداما خاطئا فأباحت الخمر والخنزير وهما مما حرم الله، وحرمت الختان وهو مما أوجبه الله!

صليبية فى حقيقتها، لمقاومة الخطر الإسلامى الزاحف على أوربا من الشرق والغرب والجنوب!

لقد كان التأثير الإسلامى - الثقافى والحضارى - تأثيرا كاسحا فى وقت من الأوقات.

يقول المؤرخ البريطانى «ويلز»: «ولو تهيأ لرجل ذى بصيرة نافذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضعة أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا، وربما أصبح إسلاميا»[1].

ويقول بريفولت فى كتاب «بناء الإنسانية Making of Humanity»: «فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم، وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والقياس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان. . وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى»[2]

«ولم يكن العلم وحده هوالذى أعاد أوربا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية»[3]

ويقول «ليوبولد ڤايس» (محمد أسد) فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «فى ذلك الحين (يقصد فى العصور الوسطى) أخذ النفوذ الإسلامى فى العالم - فى بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة فى أسبانيا المسلمة فى الغرب، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التى أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية - أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية. . . ولكن الذى صنعه العرب

---

(١) ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ج ٣ ص ٩٦٦.

(٢) عن كتاب «تجديد الفكر الدينى» لمحمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص ٢٥٠ من الترجمة العربية.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٩.

كان أكثر من بعث علوم اليونان القديمة . . لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة . . لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها . ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مدن أوربا النصرانية ، ولكن فى المراكز الإسلامية : فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[1] .

ويقول «الفارو القرطبى» وهو يتحسر على شباب أهل بلده من النصارى لأنهم أهملوا لغة قومهم وكتب دينهم ، وشغفوا بالكتب العربية : «يطرب إخوانى المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم . فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها ، بل للحصول على أسلوب صحيح رشيق . . واأسفاه! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى أدب ولا أية لغة غير العربية . فهم يقرءون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، ويجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب . وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم . . »[2] .

وحين احتك الأوربيون بالمسلمين ـ احتكاكا حربيا فى الحروب الصليبية ، واحتكاكا تجاريا عن طريق جنوة والبندقية ، واحتكاكا ثقافيا وحضاريا فى الأندلس والشمال الأفريقى وجنوب إيطاليا وصقلية الإسلامية ـ حدث تحول هائل فى الحياة الأوربية .

لقد وجدت أوربا نمطا من الحياة يختلف تماما عن النمط الذى عاشت به طوال قرونها الوسطى المظلمة .

وجدت دينا بلا كنيسة ولا رجال دين! دينا يمارسه الناس فى علاقة مباشرة بين العبد والرب لا يدخل فيها كاهن ولا قسيس .

ووجدت فكرا واسع الآفاق متعدد الجوانب ، لا حجر فيه على العقل البشرى ، ولا رقيب فيه على الناس إلا ضمائرهم ولا محاكم تفتيش تقتحم ضمائر الناس لتفتش عن المخبوء فيها لتقذف به وبحامله إلى النار!

---

(١) ص ٣٩ ـ ٤٠ من الترجمة العربية ، لعمر فروخ .

(٢) عن الترجمة العربية لكتاب «حضارة الإسلام» لجرونيباوم نشر مشروع الألف كتاب ص ٨١ ـ ٨٢ .

ووجدوا علاقات اجتماعية ليس فيها إقطاع، وليس فيها عبيد يسامون الخسف والذل والهوان[١].

ووجدوا شريعة موحدة يتحاكم إليها الناس كلهم سواسية، لا تخضع لهوى أمير الإقطاعية الذى تتمثل فيه السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها فى آن!

ووجدوا علما هائلا فى كل أبواب المعرفة المتاحة يومئذ، وحضارة مشرقة وطيدة الأركان.

وهذا كله على الرغم مما كان قد طرأ على المسلمين من انحرافات خلال قرون من الزمان!

ولم يكن لأوربا بدٌّ من أن تتأثر بهذا كله تأثرا يغير حياتها من الأساس. وكان يمكن - كما قال ويلز - أن تدخل أوربا فى الإسلام..

وكانت الكنيسة أول من استشعر هذا الخطر «الداهم!» الذى يشكل بالنسبة لها تهديدا مباشرا لكيانها وسلطانها، ولدينها كذلك! فوقفت بعنف تذود عن نفسها، وتصد المد الإسلامى عن أوربا بكل ما تملك من سلطان.

واتخذت الكنيسة وسيلتين أساسيتين لوقف المد الإسلامى: الأولى محاكم التفتيش بكل ما تشتمل عليه من وسائل التعذيب الوحشى، والثانية أنها كلفت كتابها وشعراءها أن يشنوا حملة شعواء على الإسلام يشوهون فيها صورته فى نفوس الأوربيين، ويلصقون به وبأهله أبشع التهم التى تدعو إلى النفور منه والشعور بالبغضاء نحوه..[٢].

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كان الإسلام هو الذى أخرج أوربا من ظلمات

(١) كان فى العالم الإسلامى رق. ولكن الإسلام كان قد جفف كل منابع الرق التى كانت قائمة قبله، فيما عدا بابا واحدا هو رق الحرب التى تقع بين المسلمين والكفار. ولكن ذلك الرقيق كان يعامل معاملة إنسانية وتفتح أمامه كل السبل لتحريره.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن حصيلة هذه الحملة هى ذاتها التى استخدمها المنصرون والمستشرقون فيما بعد لمحاولة إبعاد المسلمين عن الإسلام وتنفيرهم منه!

القرون الوسطى لتبدأ «نهضتها»، وإن كانت بسبب التشويه الذى تبنته الكنيسة لم تدخل فى الإسلام.

استفادت أوربا كثيرا من الحركة العلمية الإسلامية، ومن الحضارة الإسلامية المتعددة الجوانب. ولكنها وجدت جدارا ضخما يحول بينها وبين الإسلام. وعندئذ وقعت فى المأزق الذى لم تنج من آثاره حتى اليوم. فلا هى كانت مقتنعة بدينها الذى شوهته الكنيسة وأفسدت مسيرته، ولا هى دخلت فى الدين الصحيح الذى كان قمينًا أن يهديها إلى النور الحقيقى الذى أنزله الله لها، وللبشرية جمعاء:

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[1].

وقد كان مخرجها من مأزقها ذلك أنها رجعت إلى تراثها الوثنى الذى عاشته قبل دخولها فى دين الكنيسة، أعنى التراث الرومانى الإغريقى، لتستمد منه مقومات نهضتها، وتبتعد به فى الوقت ذاته عن «الدين».. وكان هذا هو البلاء الذى لم يصبها وحدها، ولكنه أصاب العالم كله معها، حين ملكت من وسائل القوة والتمكين ما مكنها من السيطرة على عالم اليوم.

إن هذا التراث يحمل فى طياته فكرة خبيثة عن العلاقة بين البشر و«الآلهة».. علاقة صراع دائم لا مودة فيه ولا هوادة ولا تعاطف.. الإنسان من جانبه فى محاولة دائبة لإثبات ذاته بتحدى «الآلهة» وعصيانها والتمرد عليها، و«الآلهة» من جانبها فى محاولة دائبة لتحطيم الإنسان وإذلاله كلما أراد أن يثبت ذاته.. وتلك هى مأساة الحياة!

ولعل أوضح مثال على هذه العلاقة هو أسطورة پروميثيوس سارق النار المقدسة. وهى أسطورة تأخذ شيئا من الواقع، وتلونه بلونها الخاص.

تقول الأسطورة إن زيوس - إله الآلهة - خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض، ثم سواه على النار المقدسة (التى ترمز فى الأسطورة إلى المعرفة) ثم أهبطه إلى الأرض

(١) سورة المائدة [١٥ - ١٦].

وحيدا فى الظلام! (يرمز الظلام إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى پروميثيوس (لعله يرمز إلى الشيطان) فسرق له النار المقدسة من الإله (والرمز هنا أن الإنسان قد أخذ يتعلم) فغضب الإله على الإنسان والشيطان كليهما! فأما الشيطان (بروميثيوس) فقد وكل به نسرا يأكل كبده طوال النهار، وفى الليل تنبت له كبد جديدة فيجىء النسر فى الصباح فيرعى كبده إلى الليل، هكذا فى عذاب دائم. وأما الإنسان فقد خلق له كائنا أنثى (ترمز إلى حواء) وأرسلها إليه فى ظاهر الأمر لتؤنسه، ولكنه أرسل معها صندوقا هدية، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور! فتناثرت الشرور من الصندوق وملأت أرجاء الأرض! وكان هذا هو الانتقام الإلهى من الإنسان الذى أخذ يتعلم!

ودعك الآن من الجانب «الفنى» فى الأسطورة، وانظر إلى المضمون. إن تلك الأسطورة تعنى - من بين ما تعنيه - أن العلم لا يأتى هبة من عند الله المنعم الوهاب، وإنما اغتصابا يغتصبه الإنسان من الإله كرها عنه! ثم إن الإله يغار من كون الإنسان قد تعلم! وفى الوقت ذاته هو عاجز عن سلب العلم منه! فينتقم منه بالتنكيد الدائم عليه، لكى لا ينعم بثمار المعرفة التى اغتصبها اغتصابا من الإله!

وفى هذا الجو الملبد بمشاعر الحقد والصراع ولدت «النهضة» الأوربية.. ولدت نافرة من الدين، متملصة منه، نابذة إياه.. واجتمع لها رافدان من الحقد فى آن واحد: الحقد على الكنيسة بسبب ما ارتكبت من آثام، والحقد الذى يحمله التراث الوثنى الذى اعتمدته أوربا زاداً تستمد منه مقومات نهضتها.

وفى ذلك الجو كذلك ولدت العلوم الاجتماعية فى أوربا، ثم نمت وترعرعت حتى آتت ثمارها الحاضرة!

***

لقد انقلبت أوربا فى «نهضتها» مائة وثمانين درجة كاملة، لتنتقم من الكنيسة، ومن الدين الذى أذلت به الكنيسة رقاب العباد..

انقلبت من دين يؤمن بالغيب [1] ويكاد يهمل عالم الشهادة، إلى «دين» يصب اهتمامه فى عالم الشهادة ويهمل عالم الغيب!

---

(١) الذى يسمونه فى لغتهم الميتافيزيقا (أى ما وراء الطبيعة، أو ما وراء العالم المحسوس).

من دين أخروى يهمل الحياة الدنيا إلى «دين» دنيوى يهمل الآخرة!

من دين يمجّد الله ويسقط الإنسان من الحساب إلى «دين» يمجّد الإنسان ويسقط الإله من الحساب!

من دين رهبانى يزدرى الجسد ولذائذه الحسية إلى «دين» غارق فى لذائذ الحس إلى درجة الحيوانية!

من دين يحارب العلم إلى علم يحارب الدين، ومن دين يحارب الحضارة إلى حضارة تحارب الدين!

من دين يتصور «الثبات» فى كل شيء ويرفض التطور، إلى «دين» يتصور التطور فى كل شيء ويرفض الثبات فى أى شيء!

من دين يحجر على العقل أن يفكر إلى «دين» يؤله العقل، ويجعله هو المحكم فى الأمور كلها، وأولها الدين!.

من دين يحتقر المرأة ولا يعترف بكيانها الإنسانى إلى «دين» ترفض به المرأة أن يتدخل الدين فى شيء من أمورها على الإطلاق!

انقلاب كامل من أقصى الطرف إلى أقصى الطرف المقابل، لا يتوقف عند نقطة الوسط المتوازن، ولا يعرف الاتزان!

***

ثم زاد الطينُ بلةً بالداروينية!

لقد ركزت الداروينية على أمور بعينها هى التى زادت الطين بلة!

فقد نفت بادئ بدء صفة الخلق عن الخالق سبحانه وتعالى، ونسبتها إلى الطبيعة. فقال دارون: «الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق:

Nature creates everything and there is no limit to its creativity.

ونفت الغاية من الخلق. فالإله الجديد ـ الطبيعة ـ يخبط خبط عشواء.

Nature works haphazardly.

وأخيرا ركزت على حيوانية الإنسان وماديته . فهو لم يخلق إنسانا من أول لحظة ، إنما هو نهاية تطور السلسلة الحيوانية ، تسبقه حلقة مفقودة ، ويسبق الحلقة المفقودة واحد من القردة العليا الأربعة : الشمبانزى والغوريللا والجيبون والأورانج أوتانج (الذى يسمى إنسان الغاب ولكنه ليس هو الجد الأعلى للإنسان!) والبيئة المادية هى التى تدفع الكائنات إلى التطور الدائم ، الذى انتهى بالإنسان . .

وبذلك أضيف رافد ثالث للبعد عن الدين ، ونبذه ، والتفلت منه فى الحياة الأوربية المعاصرة ، لا يقل أثرا - إن لم يزد - عن موقف العداء مع الكنيسة ، وتأثير التراث الوثنى الإغريقى!

وبالنسبة للعلوم الاجتماعية بالذات كان هذا الرافد الأخير أخطر الروافد جميعا ، وأشدها فى التأثير!

إن الموضوع الأساسى للعلوم الاجتماعية كلها هو «الإنسان» . وبحسب تصورنا للإنسان يكون مسيرنا فى هذه العلوم . فإذا كان تصورنا للإنسان أنه حيوان متطور ، وأن خالقه لا غاية له من خلقه ، فأين مكان «القيم» يا ترى فى هذا الكيان الحيوانى الذى برز إلى الوجود بغير هدف معين لدى الخالق الذى أوجده؟ وما «المعايير» التى تحكم حياته؟ وما المقاييس التى نرجع إليها لنحكم على أى إنجاز من إنجازاته؟ وما الذى يوصف من أعماله بأنه خير ، وما الذى يوصف بأنه شر؟ أم إنه لا خير ولا شر ، والكل فى الميزان سواء؟!

قضايا خطيرة فى الحقيقة . . لا نلتفت إليها حين نتلقى علمنا فى العلوم الاجتماعية من الغرب ، بينما هى مفرق طريق بيننا وبينهم : فى التصور ، وفى طريقة التناول ، وفى النتائج المستخلصة ، حتى لو التقى فكرنا وفكرهم فى بعض الجزئيات أو فى كثير من الجزئيات! فالجزئية وحدها لا تعطى التصور . إنما التصور المبدئى هو الذى يفسر الجزئية ويضعها فى مكانها من الصورة الكلية المتكاملة .

ولقد تأثرنا - دون أن ننتبه لتأثرنا - بقولهم : إن هذه العلوم قد تخلصت من النظرة الذاتية أو المواقف الذاتية ، وأصبحت علوما موضوعية تجريبية قياسية ، يجب التسليم بنتائجها دون تردد ، كما نسلم بالنتائج التى نحصل عليها فى الفيزياء أو الكيمياء أو علم وظائف الأعضاء!

ولا نريد أن نقول إن علم الفيزياء - منذ انساح الحاجز بين المادة والطاقة - قد دخل فى متاهة عظيمة لم يخرج منها بعد. . ولا أن أسرار الذرة وأسرار النواة التى تتحكم فى العمليات الكيميائية ليست كلها فى حيز معلوماتنا، وقد يكون المجهول منها أكثر من المعلوم. . ولا أن فى الجسم البشرى وفى وظائف أعضائه من الأسرار العجيبة ما يثير ذهول العلماء وهم يكشفون منه مجهولا بعد مجهول. .

إنما نقول إن النفس البشرية ليست كالمادة الجامدة، وليست كالنبات أو الحيوان. . وإن معايير المادة ومعايير النبات ومعايير الحيوان لا تصلح ابتداء للحكم على تصرفات الإنسان، ولا تستطيع تفسير حياته.

ثم نقول بعد ذلك إن دعوى الموضوعية فى العلوم الاجتماعية التى يقدمها لنا الغرب دعوى داحضة، ما دامت تستمد أساسا من التفسير الداروينى للإنسان، وتلوّن بهذا التفسير كل التجارب وكل الأبحاث، وتؤثر لا محالة فى النتائج الأخيرة المستخلصة من الأبحاث!

ويكفى هذا لاستشعار الحاجة الملحة إلى التأصيل الإسلامى لتلك العلوم.



أحوال الأمة الإسلامية

إذا أمعنا النظر فى أحوال أوربا فسنجد أن الفساد الأول فى حياتها قد نجم ابتداء من المفاهيم الدينية الخاطئة التى اعتنقتها بدلا من الدين الصحيح. فهى مفاهيم محرفة ترتب عليها كما بينا فى الفصل السابق ألوان كثيرة من الشر، أدت بأوربا فى النهاية إلى النفور من ذلك الدين ونبذه والتمرد عليه. ولقد كان التمسك بتلك المفاهيم الخاطئة فى عصور أوربا الوسطى هو السبب الرئيسى فيما اتسمت به تلك العصور من الظلام، لأنها ـ كما ألمحنا ـ حولت الدين إلى دين أخروى يهمل الحياة الدنيا، يمجد الله ولكنه يحقّر الإنسان، ويكبت دوافعه الفطرية، ويزين له الرضى بالفقر والظلم والشقاء فى الحياة الدنيا طمعا فى نعيم الآخرة، ويرفض الحركة التى تؤدى إلى عمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها ويحارب العلم وينشر الخرافة والتصورات الخاطئة عن الكون والحياة والإنسان.

وليس العجب أن أوربا ثارت على ذلك الدين وكنيسته آخر الأمر، إنما العجب أنها عاشت فى ظله كل تلك القرون التى عاشتها، غير شاعرة بما يحيطها من الظلام والظلم، والجهالة والانغلاق..

والحقيقة أن إحساس أوربا بما هى فيه، ورغبتها فى التخلص منه وتغييره ما بدأ إلا بعد احتكاكها بالإسلام والمسلمين، من خلال القنوات المتعددة التى أطْلَعَتْ أوربا على الإسلام: الحروب الصليبية، والصلات التجارية، والابتعاث إلى الجامعات الإسلامية، وترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغات الأوربية..

ولكن موقف الكنيسة من المد الإسلامى الزاحف إلى أوربا من الشرق والغرب والجنوب، كان هو السبب الرئيسى فى الفساد الثانى الذى عاشته أوربا منذ «النهضة» إلى اللحظة الحاضرة، على الرغم من كل التقدم العلمى والتكنولوچى والقوة المادية

والحربية والسياسية والاقتصادية التي يملكها الغرب في وقته الحاضر. فقد أدى موقف الكنيسة بأوربا إلى الخروج من دينها، وعدم الدخول في الوقت ذاته في الإسلام، وانتشار المذاهب الفكرية والاجتماعية الكارهة للدين، الراغبة في حصره في أضيق نطاق ممكن - إذا سمحت له بالوجود أصلا - وإبعاده عن مجالات البحث العلمي، وعن السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والفن. . والأخلاق!

***

إذا اتضح لنا ذلك من ظروف أوربا فقد اتضح لنا - أو يجب أن يتضح لنا - أن طريقنا غير طريقهم، لأن ظروفنا كلها غير ظروفهم. .

أول فارق بين ظروفنا وظروفهم هو اختلاف الدين. . فبينما اعتنقت أوربا دين بولس بدلا من الدين السماوي، فإن الأمة الإسلامية قد اعتنقت الدين السماوي الحقيقي المنزل من عند الله، الذي هو دين الحق من ناحية، والدين المنزل للبشرية كافة من ناحية أخرى، والمنزل للزمن كله من مبعثه ﷺ إلى آخر الزمان من ناحية ثالثة:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[1].

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم[2]﴾[3].

ولننظر نظرة سريعة في خصائص الدين الإسلامي من جهة، ومسيرة الأمة الإسلامية به من جهة أخرى، لنرى الفارق بين المسيرتين.

ولنركز في نظرتنا السريعة على الجوانب التي يتقابل فيها موقف الدينين من قضايا الحياة الكبرى، لنتبين فيما بعد أثر ذلك التقابل في المسيرة التاريخية لكل من الأمتين.

كان الدين الذي اعتنقته أوربا دينا أخرويا يهمل الحياة الدنيا، وكان رد الفعل «النهضوي» عندهم هو الاهتمام الزائد بالحياة الدنيا وإهمال الآخرة، فما موقف الإسلام في هذه القضية؟

---

(١) سورة المائدة [٣].
(٢) أي القرآن.
(٣) سورة المائدة [٦٨].

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدارالآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[1] .

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[2] .

ليست الدنيا نقيضا مقابلا للآخرة ، ولا الآخرة نقيضا مقابلا للدنيا ، وليس العمل لإحداهما صارفا عن العمل للأخرى . إنما يعمل الإنسان بجهده كله ، ونشاطه كله ، ودوافعه كلها لعمارة الأرض ، وحين يعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى يكون قد عمل للآخرة فى ذات الوقت دون أن يحتاج لأن يحيد عن طريقه أو يعطل طاقة من طاقاته ، أو يهمل واجبا من واجباته . ومن ثم لا تتنازع الدنيا والآخرة فى حسه ، ولا تتمزق بينهما نفسه ، ولا تتشتت اتجاهاته .

***

وكان الدين الذى اعتنقته أوربا غارقا فى «الميتافيزيقا» ، أى الاهتمام بعالم الغيب ، مهملا لعالم الشهادة ، ثم كان رد الفعل «النهضوى» عندهم هو إهمال «الميتافيزيقا» ووصمها بأنها خرافة ، والاهتمام الزائد بعالم الشهادة . فما موقف الإسلام فى هذه القضية؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

---

(١) سورة القصص [٧٧] .

(٢) سورة الملك [١٥] .

(٣) سورة البقرة [١٧٧] .

إن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ليس نقيضا مقابلا للإيمان بالمحسوس، والتعامل معه تعاملا حسيا ماديا عقلانيا، واستخلاص طاقات السموات والأرض، واستخدامها فى عمارة الأرض. ففى تركيب النفس الإنسانية كما فطرها الله تتجاور النزعتان معًا وتتآلفان وتتناسقان: نزعة الإيمان بما تدركه الحواس، والإيمان بما لا تدركه الحواس.. وتلك مزية ميز الخالق بها الإنسان عن الكائنات الأخرى، وجعلها فى مقدمة خصائصه:

﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذى يؤمنون بالغيب.. ﴾[1].

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[2].

الحواس تتعامل مع الكون المادى - مع عالم الشهادة - تعاملا كاملا يشمل السمع والبصر (وما يؤديان إليه من ملاحظة وقياس واستنباط وتجربة وتعلم واختراع واستغلال) والأفئدة تتعامل مع عالم الغيب، فتؤمن بالله، وتتلقى عنه، وتعمل بمقتضى وحيه، وتؤمن بأنبيائه، وتؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وجزاء، بلا تعارض، ولا تنازع، ولا شتات..

***

وكان الدين الذى اعتنقته أوربا دينا يمجد الله ويحقّر الإنسان، ثم كان رد الفعل «النهضوى» عندهم هو تمجيد الإنسان بدلا من الله. فما موقف الإسلام فى هذه القضية؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين:

فالله تقدست أسماؤه هو المجّد فى السموات وفى الأرض، وهو الفعال لما يريد:

﴿ وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة [١ - ٣].

(٢) سورة النحل [٧٨].

(٣) سورة البروج [١٤ - ١٦].

والإنسان فى الوقت ذاته مكرم بتكريم الله :

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1] .

إن تمجيد الله سبحانه وتعالى ليس نقيضا مقابلا لتكريم الإنسان. وتكريم الإنسان كذلك ليس نقيضا مقابلا لتمجيد الله . إنهما ليسا ندين متصارعين كما تصور الأسطورة الوثنية الإغريقية ، بحيث يكون ارتفاع أحدهما هبوطا للآخر! الله فى علاه ، هو الحميد المجيد ، هو القوى القاهر ، هو العزيز الحكيم ، هو الخلاق الرزاق ذو القوة المتين ، والإنسان هو العبد الخاضع لجبروته المتطلع لرحمته ، ولكنه فى عبوديته مكرم ، لأن الخالق كرّمه ، ووهبه من فضله ، وعلّمه ورشّده ، وهداه النجدين . ومِنْ أكرم ما كرمه به أنه لم يقهره على الإيمان كما قهر بقية الكائنات ، إنما وهب له عقلا يميز به ، وإرادة فاعلة يختار بها بين طريقين :

﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[2] .

الإنسان ليس إلها ، ولا ينبغى له أن يكون ، ولكنه ليس هملا ، وليس كائنا سلبيا مهينا محقرا لكونه ليس إلها! والكون الذى خلقه الله يتسع لألوهية الله ولعبودية العباد كلٌ فى مقامه ، بلا تناقض ولا صدام!

وحقيقة إن الإنسان قاصر . وإنه ضعيف . وإنه خطاء . وإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله . ولكن هذا كله لا يمنع عنه الكرامة التى كرمه بها الله ، والرفعة التى كتبها له الله ، إنما الذى يزيل عنه الكرامة ويهبط به أسفل سافلين أن يدعى الألوهية ، ويجعل نفسه ندا لله ، أو يتخذ أندادا من دون الله ، أو يخلد إلى الأرض ويتبع هواه . عندئذ فقط يسقط فى الحضيض ، وتحق عليه اللعنة من الله . أما حين يقع منه القصور ، ويقع منه الضعف ، ويقع منه الخطأ ، فكل ذلك لا يزيل عنه الكرامة ، متى فاء إلى الله ، فتاب وأناب :

---

(١) سورة الإسراء [٧٠] .

(٢) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[١].

« كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[٢]

***

وكان الدين الذى اعتنقته أوربا دينا رهبانيا يكبت الدوافع الفطرية ويحتقرها ويستقذرها، ويرى الرفعة فى إغلاق السبل عليها. وكان رد الفعل «النهضوى» عندهم هو الانطلاق مع الدوافع الفطرية إلى أقصى حد . . إلى حد الحيوانية . . والثورة على كل قيد يمنع الانطلاق. فما موقف الإسلام من هذه القضية؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

الإسلام لا يستقذر الدوافع الفطرية ولا يكبتها، بل يدعو إلى إعطائها مجالها الطبيعى لتعمل، ولكنه يضبطها ليرفع منطلقها، ويربطها بالقيم العليا لكى لا تسف وتهبط إلى مستوى الحيوان، ويظل أداؤها «إنسانيا» فى جميع الأحوال :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[٣].

«وإن فى بضع أحدكم لأجرا. قالوا يا رسول الله، إن أحدنا ليأتى زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر؟! قال: أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر »[٤].

(١) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦].
(٢) أخرجه الشيخان.
(٣) سورة آل عمران [١٤ - ١٧].
(٤) أخرجه مسلم.

« ألا إنى أتقاكم لله ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(١) .

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾(٢) .

﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾(٣) .

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾(٤) .

****

وكان الدين الذى اعتنقته أوربا دينا يقر الثبات فى كل شىء ويمنع التطور ويحاربه ، ثم كان رد الفعل «النهضوى» عندهم هو إحداث التطور فى كل شىء ، والنظر إلى الثبات ـ على إطلاقه ـ على أنه مَعْجَزَة وجمود ورجعية ومخالَفَة لطبيعة الكون وطبيعة الحياة . . فما موقف الإسلام من هذه القضية؟

الإسلام هو نقطة الوسط المتوازن بين النقيضين المتطرفين :

لا الحياة كلها تطور . . ولا الحياة كلها ثبات !

هناك ثوابت لا يمكن أن تتغير ، ولا يجوز أن تتغير . وهناك متغيرات لا يمكن أن تثبت على حالها ولا يجوز أن تثبت . وحين توضع الثوابت على الخط المتغير تفسد الحياة . وحين توضع المتغيرات على الخط الثابت تفسد الحياة . والإسلام يعالج الأمرين كلا بما يستحقه ، فيثبّت الثوابت ويسمح بالمتغيرات !

(١) أخرجه مسلم .
(٢) سورة الأعراف [٣١] .
(٣) سورة الأعراف [٣٢] .
(٤) سورة المائدة [٥] .

الله سبحانه وتعالى موجود. ووجوده ثابت لا يتغير، لأنه حيّ قيوم أزلي أبدى:

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[1].

وهو الخالق سبحانه، والإنسان من مخلوقاته.. ومن حق الإله أن يُعْبَد، ومن واجب المخلوق أن يعبد إلهه.

تلك قضية ثابتة.. حين توضع على الخط المتغير كما صنعت أوربا فى جاهليتها المعاصرة يترتب على ذلك أن الإله الحقيقى لا يعبد، وتعبد بدلا منه آلهة زائفة، لأن الإنسان عابد بفطرته.. لابد أن يعبد.. وليس الفرق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وذاك لا يعبد. إنما الفارق أن إنسانا يعبد الإله الحق، وإنسانا يعبد آلهة أخرى مع الله أو من دونه سواء. وحين يخيل للإنسان فى لحظة غروره ـ أو تمرده ـ أنه لا يعبد شيئا أبدا فهو فى تلك اللحظة عابد لهواه:

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[2].

وحين يعبد هواه يفسد، وتفسد معه الأرض..

والقضية الكبرى فى حياة الإنسان منذ سكن هذه الأرض.. القضية التى يترتب عليها حاله فى الدنيا ومآله فى الآخرة، هى هذه القضية: هل يعبد الله الحق، الجدير بالعبادة، فتستقيم حياته فى الدنيا والآخرة، أم يعبد آلهة أخرى معه أو من دونه، فتفسد حياته فى الدنيا والآخرة؟ وهى هى القضية التى أرسل من أجلها الرسل، وأقيمت من أجلها الجنة والنار.

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3].

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾[4].

﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[5].

---

(١) سورة الحديد [٣].
(٢) سورة الجاثية [٢٣].
(٣) سورة الأنبياء [٢٥].
(٤) سورة النساء [٣٦].
(٥) سورة هود [٥٠].

ومقتضى عبادة الله اتباع ما أنزل الله :

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾[1] .

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[2] .

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[3] .

﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[4] .

وحين يتبع الإنسان ما أنزل الله يكون فى موضع الرفعة والتكريم :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾[5] .

وحين يخلد إلى الأرض ويتبع هواه تزول عنه الرفعة والتكريم :

﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾[6] .

أما المنهج الربانى المنزل من عند الله فى الرسالة الأخيرة ، الموجهة إلى البشرية كافة ، والتى اكتمل فيها الدين ، فقد روعى فيه من لدن منزّله سبحانه أن يكون وافيا بحاجات

---

(١) سورة الأعراف [٣] .

(٢) سورة الشورى [٢١] .

(٣) سورة البقرة [٢٨ ـ ٢٩] .

(٤) سورة طه [١٢٣ ـ ١٢٤] .

(٥) سورة المجادلة [١١] .

(٦) سورة الأعراف [١٧٥ ـ ١٧٧] .

الإنسان كلها، ثابتها ومتغيرها، بحيث لا تأسن الحياة فى ظله حين يُتَّبع على بصيرة، ولا تنفلت كذلك بلا ضوابط تضبط انطلاقها.

فهناك فى التشريع الربانى ثوابت ومتغيرات:

من الثوابت عبادة الله وحده بلا شريك.

ومن الثوابت حرمة الدم والمال والعرض.

ومن الثوابت تنظيم علاقات الجنسين فى قنوات منضبطة بحيث لا تنقلب إلى فوضى.

ومن الثوابت تنظيم علاقات الأسرة والمحافظة عليها وعلى ترابطها وتوزيع المغانم والمغارم فيها بالعدل.

ومن الثوابت تحريم الربا والغصب والسرقة والغش والخداع فى المعاملات الاقتصادية.

وكل هذه وضعتها الجاهلية المعاصرة على الخط المتغير فحدث ما حدث من الفساد فى الأرض.

وهناك متغيرات تنشأ من الاحتكاك الدائم بين العقل البشرى وطاقات الكون المادى، فتتغير معها صورة الحياة، كلما عرف الإنسان جديداً من خواص المادة، فاستغل المعرفة فى التحسين والتجميل والتكميل، الذى هو ديدن الفطرة، والذى أودعه الله فى الفطرة ليكون دافعا لعمارة الأرض وتنمية الحياة وترقيتها. وموقف الشريعة تجاه هذه المتغيرات على نوعين، بحسب نوع التغير الذى يحدث. فبعضها وضعت له الشريعة قواعد ثابتة تحكم المتغيرات دون أن تحبسها فى إطار معين. كالثوابت التى تحكم المعاملات الاقتصادية وتتغير الصورة تحتها من اقتصاد رعوى إلى اقتصاد زراعى إلى اقتصاد صناعى، دون أن تتغير الثوابت التى تحكمه، فيجتهد فيه العلماء الفقهاء فى حدود الثوابت المقررة. وبعضها - كالتنظيمات الإدارية، وكنظام المرور مثلا - لم تتعرض له الشريعة لأنه من المصالح المرسلة المتروكة للعقل البشرى، يجتهد فيها بما يحقق المصلحة للمسلمين. وفى جميع الأحوال يكون شرط الاجتهاد ألا يحل حراما أو يحرّم حلالا أو يصادم مقاصد الشريعة، ولا مجال هنا للتفصيل، إنما مكانه كتب الفقه والأصول. ولكن الذى نريد الإشارة إليه هنا هو تلك المرونة التى

جعلها الله فى شريعته الخاتمة، التى أنزلها لتحكم الحياة البشرية مدى الزمن كله من مبعث الرسول ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فتتسع لكل جديد صالح، وتبقى ثوابتها ثابتة حيث يلزم الثبات.

***

إذا تأملنا هذه الخصائص التى جعلها الله فى هذا الدين، نجد أن المسلم السوى لم يكن قط - ولا يكون قط - فى موقف الصراع مع دينه، ولا هو فى حاجة أن ينبذه ويتمرد عليه، كما كان الحال مع الدين الذى اعتنقته أوربا، والذى لم يكن لها بد من الصراع معه، ونبذه والتمرد عليه، إن أرادت أن تنهض وتتحرك وتتجدد وتنمو.. فحيثما توجه المسلم السوى، فى أى نشاط من نشاطاته، وفى أى مجال من مجالات حياته، فلن يجد الدين حاجزا يحجزه، بل يجد على العكس من ذلك أن الدين هو الذى يحثه ويستنهض همته، ويدفعه إلى العمل والنشاط.

والشاهد هو التاريخ..

فالأمة التى حملت الإسلام إلى البشرية لم تكن قبل اعتناقها الإسلام أمة علم، ولم تكن لها عناية كبيرة بعمارة الأرض. والإسلام هو الذى دفعها للبحث العلمى حتى صارت فى يوم من الأيام هى الأمة العالمة فى الأرض، التى تتتلمذ عليها البشرية فى العلوم. والإسلام هو الذى دفعها لاستنباط المنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى هو عماد التقدم الذى حدث فى كل ميادين العلم الحديث. والإسلام كذلك هو الذى دفع المسلمين إلى المشى فى مناكب الأرض وكشف مجاهلها، وعمارتها بشتى أنواع العمارة من زراعة وصناعة وتجارة، وبناء مدن وإنشاء طرق وتنظيم وسائل اتصال، فضلا عن الخدمات الإنسانية الرفيعة، من تعليم مجانى، وتطبيب مجانى، وأوقاف للخير، ونشر للبر. وهذه الحضارة التاريخية الفذة، المتعددة الجوانب، الشاملة لكيان الإنسان كله: جسده وعقله وروحه. دنياه وآخرته. نشاطه العلمى ونشاطه العملى ونشاطه الفكرى، إنتاجه المادى وإنتاجه الروحى، لا نقول فقط إنها تمت فى ظل الإسلام بلا تعارض معه ولا صراع، ولكن نقول إنها كانت نتاج الإسلام، وترجمة واقعية للروح الدافعة فى هذا الدين.

أما المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية فهى لا تخرج عن إحدى حالتين : إما التزام بهذا الدين ، وتمسك به على وعى وبصيرة ، وإما تلفت منه ، وانحراف عن مفاهيمه .

وشهادة التاريخ تقول : إن فترات الالتزام والتمسك هى فترات القوة والتمكين والرفعة والازدهار فى جميع الجوانب ، وفترات التفلت والانحراف ، هى فترات الضعف والهبوط وزوال التمكين . وإن القرون الأولى كانت خير القرون فى جميع المجالات ، وإن القرن الأخير هو أسوأ القرون جميعا فى تاريخ الأمة الإسلامية . ولذلك دلالة واضحة ؛ فالقرون الأولى كانت هى قرون التمسك الواعى بهذا الدين ، والعمل بمقتضياته فى عالم الواقع . والقرن الأخير هو فترة التيه فى حياة الأمة ، التى نسيت فيها دينها ، واتخذت لها مراجع من غير هذا الدين ، وانسلخ فيها من انسلخ من الإسلام .

والدلالة الواضحة لذلك أن منبع القوة لهذه الأمة هو هذا الدين ، ومصدر الضعف الذى يلم بها هو البعد عنه . بل هناك ما هو أوضح دلالةً على هذه الحقيقة . . فتاريخ هذه الأمة ليس كله صعودا وليس كله هبوطا على خط منحدر . إنما هو تاريخ يشتمل على ذبذبات صاعدة وهابطة . وفى فترة من تاريخ الأمة كانت البدع والانحرافات والترف والتفلت من التكاليف قد وصلت حدا لم تكن قد بلغته من قبل ، فتكالب الأعداء عليها من كل جانب : الصليبيون والتتار والرافضة والفرق الباطنية ، وكادت الأمة تهلك وتزول من التاريخ ، وذلك فى نهاية العصر العباسى الثانى ، فكان العلاج الذى تعاطته - بفضل من الله - هو العودة لهذا الدين . . وعندئذ نفضت عنها ضعفها وتخاذلها وتقاعسها ، وعادت لها حيويتها ، فطردت التتار والصليبيين ، وعادت ممكنة فى الأرض فخمدت شوكة الأعداء .

وهنا نقطة تقابل أخرى بين الأمة التى اعتنقت دين بولس ، والأمة التى اعتنقت دين الله الحق . فالأمة التى اعتنقت دين بولس كان دينها هو الداء ، كلما زادت جرعته فى حياتها زاد ضعفها وفسادها والظلمات التى تحيط بها ، وكان جزءا من علاجها أن تخرج من ذلك الدين . بينما الأمة التى اعتنقت الدين الحق كانت عافيتها وحيويتها

ورفعتها وقوتها فى دينها، كلما زادت جرعته فى حياتها زادت تمكينا فى الأرض، ونجاحا فى المسيرة فى الحياة الدنيا، فضلا عن رضوان الله فى الآخرة.

وتلك حقيقة تاريخية مهمة يجب أن يفىء إليها الذين يدعون إلى تقليد أوربا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، والذين يظنون - بفعل تبعيتهم الفكرية للغرب - أن «الدين» كله دين! لا فرق فيه بين زائف وأصيل، وأنه - كله - مادة ضارة يجب أن تنبذ، أو فى القليل يحجم استخدامها فينحصر فى أضيق الحدود! بينما الغرب ذاته - الذى يتبعونه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير - يعرف جيدا حقيقة الإسلام، ويعرف إلى أى مدى هو مصدر قوة لهذه الأمة، ولذلك يحارب الصحوة الإسلامية الحاضرة بضراوة وحشية، خشية أن تزحزحه عن مكانه الذى ما احتله إلا فى غيبة هذه الأمة، وبسببٍ من غيبتها فى التيه[1].

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[2].

***

ولكن هناك وَهْمًا ضخما يسيطر على الناس فى الجاهلية المعاصرة، منشؤه التمكين المادى الذى أحرزه الغرب فى تاريخه الحديث. ذلك الوهم هو الظن بأن هذا التمكين لا يمكن أن ينشأ إلا عن منهج سليم للحياة! ومن ثم فكل ما يفعله الغرب صحيح وسليم ومستقيم!

والذين يقولون ذلك أو يعتقدونه هم فى جهل كبير بالسنن الربانية التى يُجْرى الله بها حياة البشر على الأرض. فلو أن الله قد قدر ألا يحصل على التمكين إلا الطيبون الصالحون المستقيمون لكان ظنهم فى مكانه، ولكان هناك ارتباط بين التمكين فى الأرض وسلامة المنهج من ورائه. ولكن انظر إلى سنة الله فى هذا الأمر:

---

(١) اقرأ إن شئت كتاب «هلم نخرج من ظلمات التيه».

(٢) سورة البقرة [١٤٦].

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾(1) .

فهذا تقرير صريح من الله سبحانه وتعالى أنه يعطى التمكين فى الدنيا للمؤمن والكافر على السواء . أى لصاحب المنهج الصحيح وصاحب المنهج المعوج على السواء!

إنما يرتبط التمكين - حسب السنن الربانية - بمعايير أخرى وأدوات أخرى غير استقامة المنهج أو فساده تبينها الآية التالية :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾(2) .

والإرادة المذكورة فى الآية ليست مجرد الرغبة! فالرغبة بلا عمل لا تؤدى إلى شىء . إنما هى الرغبة مع استخدام الأدوات المؤدية إلى تحقيق الرغبة ، من جهد عقلى ونفسى وعصبى وجسدى ، يشمل البحث العلمى ، والدأب والمثابرة ، والجد فى العمل ، والتنظيم ، وطول النفس ، ووضوح الهدف . . فحين تتوافر هذه الأسباب فقد قضى الله أن يُوَفِّى للقائمين بها جزاء جهدهم فى الحياة الدنيا ، ولا يبخسهم جهدهم . ويتم هذا بمشيئة من الله وليس تلقائيا كما يظن الجاهليون!

بل يقول الله سبحانه وتعالى ما هو أشد لفتًا للنظر من ذلك :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء.. ﴾(3) .

أى لما زاد فسادهم واشتد ، فتحنا عليهم أبواب التمكين من كل جانب!

ولله حكمته فى ذلك . فهذا تمكين الاستدراج ، يستدرج به الله الخارجين على عبادته ليزدادوا إثما :

(1) سورة الإسراء [18 - 20] .
(2) سورة هود [15] .
(3) سورة الأنعام [44] .

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾[1] .

﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين﴾[2] .

﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾[3] .

وذلك فضلا عن كون هذا التمكين مهما طال فنهايته الدمار :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾[4] .

وفضلا عن «الضنك» الذى يعيشون فيه رغم الوفرة المادية وفتح أبواب التمكين عليهم :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا..﴾[5] .

وهذا الضنك فى حياة الغرب اليوم يتبدى واضحا فى الأمراض النفسية والعصبية والقلق والانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة ، التى تتزايد على الدوام ولا يجدون إلى وقفها من سبيل .

وذلك كله فضلا عن المصير البئيس فى الآخرة :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[6] .

أما الذين آمنوا فيشتركون فى جانب من هذه السنن ويفترقون فى جانب .

يشتركون فى أنه لا تمكين بغير جهد يبذل ، وأدوات تتخذ . . ذات الجهد الذى يبذله الكفار من أجل التمكين ، وذات الأدوات : الجهد العقلى والنفسى والعصبى

---

(١) سورة آل عمران [١٧٨] .
(٢) سورة القلم [١٤ـ١٥] .
(٣) سورة النحل [٢٥] .
(٤) سورة الأنعام [٤٤ـ٤٥] .
(٥) سورة طه [١٢٤] .
(٦) سورة هود [١٥ـ١٦] .

والجسدى، الذى يشمل البحث العلمى، والدأب والمثابرة، والجد فى العمل، والتنظيم، وطول النفس، ووضوح الهدف . .

ويفترقون - بالنسبة للحياة الدنيا - فى أمرين، يتحققان فى تمكين الرضا، ويفتقدان فى تمكين الاستدراج، هما البركة والطمأنينة .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض.. ﴾[2] .

الطمأنينة مقابل القلق والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة . والبركة مقابل الضنك .

أما فى الآخرة فالفارق هو فارق الجنة والنار . .

تلك هى السنن الربانية التى تحكم هذا الأمر . ويتبين منها أن النجاح المادى والتمكين فى الأرض ليس فى ذاته دليلا على استقامة المنهج وصلاحه، مادام هذا التمكين يمنح للكافر والمؤمن على السواء! إنما هو دليل فقط على الاجتهاد فى اتخاذ الأسباب، ولا شك أن الغرب فى جولته الراهنة قد برع براعة فائقة فى اتخاذ الأسباب التى تؤدى إلى التمكين المادى، وبلغ فيها ما لم تبلغه أمة فى التاريخ .

أما استقامة المنهج فأمر آخر مختلف، لا علاقة له بالتمكين المادى، وتدل كل الدلائل على الانحراف الواقع فى حياة الغرب اليوم فيما يتعلق بمنهج الحياة، والقيم التى يعيش الناس من أجلها هناك .

إن الغرب - فى جولتيه الماضية والحاضرة - قد أخذ جانبا واحدا من الإنسان ومن الحياة الإنسانية، وأهمل الآخر .

ففى جولته الماضية - التى تمثلها العصور الوسطى الأوربية - ركز على عالم الغيب، وعالم الآخرة، وعالم الروح، وأهمل عالم الشهادة، وأهمل الحياة الدنيا، وأهمل الجسد ودوافعه، فضلا عن الحجر الذى فرضته الكنيسة على العقل، وكان ذلك كله سببا فى الظلمات التى توصف بها العصور الوسطى هناك .

---

(١) سورة الرعد [٢٨].
(٢) سورة الأعراف [٩٦].

وفى جولة الحاضرة - التى بدأت منذ «النهضة» حتى الوقت الحاضر - ركز على عالم الشهادة، والحياة الدنيا، ونشاط الجسد ولذائذه الحسية، وأهمل عالم الغيب، وعالم الآخرة، وعالم الروح، فضلا عن تأليه العقل وجعله هو المحكم فى كل الأمور، ما يصلح له وما لا يصلح على السواء. وكان ذلك كله سببا فى انحدار القيم والمبادئ والتحلل الخلقى الذى لا مثيل له فى التاريخ.

فى كلا الحالين كان الغرب يعيش فى الظلمات! كان يعيش بمسخ مشوه هو نصف إنسان! إما هذا النصف وإما النصف الآخر. ولم يجتمع له قط كيانه المتكامل الذى خلق الله عليه «الإنسان».

ولا يعنى هذا أن حياة الغرب - فى كلتا جولتيه - كانت كلها شرا أو أنها خلت من جوانب الخير! كلا! فما من جاهلية فى التاريخ كله كانت كلها شرا، وكانت خالية من الخير.

يقول رسول الله ﷺ عن الجاهلية العربية: «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[1]..

ومعنى ذلك أنه يوجد خيار فى الجاهلية!

ويقول عليه الصلاة والسلام: «دعيت إلى حلف فى الجاهلية فى بيت ابن جدعان لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت»![2]

ولكن الخير الجزئى المتناثر فى الجاهليات لا يمنع وَسْمَ الجاهلية بأنها جاهلية! ولا يعطيها شرعية الوجود من ناحية أخرى. ولا يمنع عنها الدمار فى النهاية!

والخلاصة من هذا الأمر كله - فيما نحن بصدده فى هذه العجالة - أن منهج الغرب فى تناوله للعلوم الاجتماعية منهج لا يتفق معنا لأنه نتاج ظروف غير ظروفنا، وليس علما «موضوعيا» كما يزعم الغرب، وأن التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية حاجة ملحة للأمة الإسلامية، وأن الصحوة ينبغى أن تضع هذا الأمر فى حسابها، وتوجه له من الاهتمام ما هو جدير به، وإلا فسيظل الغزو الفكرى المنبث فى هذه العلوم فى الوقت الحاضر يفسد عقول الدراسين، ويبث فيها تبعية مريضة تجاه الغرب!

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ١ صـ١٣٣.



كيف يكون التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية

تجدر الإشارة أولا إلى أننا اخترنا كلمة «التأصيل الإسلامى» بدلا من كلمة «الأسلمة» التى شاع استخدامها فى الفترة الأخيرة، لأن كثيرا مما كتب فى مجال «أسلمة العلوم» لم يكن تأصيلا إسلاميا حقيقيا بالمعنى المطلوب، بقدر ما كان اعتمادا للمفاهيم الغربية، مع وضع «طلاء» إسلامى عليها، يتمثل فى بعض الآيات والأحاديث التى يرى مستخدموها أنها تناسب الموضوع!

التأصيل الإسلامى عمل مختلف . . إنه الانطلاق ابتداء من منطلق إسلامى، سواء التقى بعد ذلك فى بعض الجزئيات أو لم يلتق مع ما كتبه الغرب فى تلك العلوم. فليس القصد الالتقاء لمجرد الالتقاء، ولا الاختلاف لمجرد الاختلاف. إنما القصد التعرف على التصور الإسلامى، وزاوية الرصد الإسلامية، ثم الانطلاق منها إلى حيث تؤدى بنا باستخدام الوسائل العلمية المشهود لها، والتى تناسب البحث المطلوب. وسنجد حين نفعل ذلك أن الخلاف الجوهرى هو فى نقطة الانطلاق. فى زاوية الرؤية. فى تفسير الوقائع، ووضعها فى مكانها فى الصورة المتكاملة. وليس من الضرورى فى كل حالة أن يكون هناك خلاف فى الجزئيات. ففى التاريخ مثلا أو فى الاجتماع قد نتفق معهم فى رصد الظاهرة التاريخية أو الظاهرة الاجتماعية لأنها واقع مشهود لا يختلف الناس فى رؤيته. ولكن تفسيرهم للظاهرة، المنبثق من رؤيتهم الخاصة، كثيرا ما نختلف معهم فيه، لأن رؤيتنا مختلفة عن رؤيتهم، ورصيدنا الواقعى مختلف عن رصيدهم، والميزان الذى نزن به مختلف عن ميزانهم. وأوضح مثال على ذلك أنهم يرون أن إلغاء عالم الغيب (الذى يسمونه الميتافيزيقا) أو فى القليل إهماله، كان تقدما

تاريخيا واجتماعيا وإنسانيا اكتسبه الغرب فى عصره الحاضر، بينما نرى نحن ذلك انتكاسة إنسانية لا تليق بالإنسان. . فالظاهرة متفق عليها لأنها واقع مشهود، ولكن تفسيرها عندنا وعندهم تفصل بينهما هوة لا لقاء بين أطرافها!

وحين يكون حديثنا عن العلوم الاجتماعية فالمنطلق الذى ننطلق منه هو تصورنا «للإنسان». فمن هذا التصور تتفرع كل العلوم التى تتعامل مع «الإنسان» فى شتى نشاطاته ومجالات حياته، سواء التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد أو التربية أو علم النفس أو الآداب. فكل علم من هؤلاء يتناول جانبا من حياة الإنسان، يحاول تفسيره وتقنينه وتحليله وإلقاء الضوء عليه. ويختلف كل علم عن الآخر فيما يركز اهتمامه عليه، وفى طريقة تناوله للجانب الذى يركز عليه، ولكنها تشتبك جميعا عند الأصل المشترك وهو «الإنسان»[1].

وحين يكون هدفنا هو التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية، فنقطة البدء التى ننطلق منها هى محاولة التعرف على صورة «الإنسان» كما تعرضها المصادر الإسلامية[2]، فنسأل أنفسنا أولا ثم نحاول الإجابة: ما الإنسان؟ ما تكوينه؟ ما حدود طاقاته؟ ما غاية وجوده؟ ما معيار إنجازاته؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه، سواء من داخل نفسه أو من خارجها؟ ما مبدؤه وما منتهاه؟

وحين نجد الإجابة الصحيحة نكون قد خطونا الخطوة الأولى، التى نأخذ بعدها فى التطبيق على كل علم بمفرده، مستندين إلى ذلك التصور العام، الذى تلتقى عنده وتتفرع عنه كل العلوم.

***

وربما يسأل سائل - وكثير هم الذين يسألون - لماذا لا نأخذ التصور «الجاهز» الذى توصل إليه الغرب فى دراساته، والغرب قد تقدم عنا مراحل شاسعة فى كل مجالات

---

(١) يحسن بنا هنا أن نشير إلى أن بعض جامعاتنا تسمى هذه الدراسات أو بعضا منها «بالعلوم الإنسانية» ترجمة لكلمة Humanities المستخدمة فى الغرب، ظنا منهم أن المقصود بالكلمة هو «العلوم المتعلقة بالإنسان» وهذا غير صحيح بالنسبة للمصطلح كما يستخدمه الغربيون. فهم يقصدون به - منذ عصر النهضة عندهم - «العلوم التى تؤخذ المعرفة بها من الإنسان لا من الوحى الربانى»! أى أنها تعنى عندهم اتخاذ الإنسان مصدرا للمعرفة بدلا من الله! فلنتنبه ونحن ننقل المصطلحات!

(٢) الكتاب والسنة والعلوم المتعلقة بهما.

العلم وكل مجالات البحث، وأصبحت لديه إجابات «معيارية» عن هذه الأسئلة جميعا تكفينا مئونة البحث، وتوفر عليها الجهود؟!

فنقول بادئ ذى بدء إن التصور الغربى للإنسان يشتمل على خللين أساسيين: الخلل الأول هو اعتبار أن الإنسان هو ذلك الحيوان الداروينى المتطور، الذى قدمته نظرية دارون فى القرن الماضى، وما تزال تغذيه فى كثير من مجالات الدراسة، والدراسات الاجتماعية بصفة خاصة. والخلل الثانى هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه الذى أنشأه وأخرجه إلى الوجود، كأنما الإنسان هو الذى خلق نفسه، أو وجد بغير موجد! ومن ثم فهو المرجع وهو المعيار لكل ما يصدر عنه من أفعال وتصرفات!

وسنتكلم عن موطن الخلل فى كل من هذين الأصلين الخطيرين اللذين يحكمان الدراسات الغربية فى العلوم الاجتماعية، بوعى منهم أو بغير وعى، ويؤثران فى النتائج النهائية التى يصلون إليها فى هذه العلوم.

فبالنسبة للخلل الأول تقول الداروينية إن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشبيه بالإنسان، المتطور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع: الشمبانزى والغوريللا والأورانج أوتانج والجيبون، وإنه مر فى تطوره بمراحل عدة، كان يقترب فيها فى كل مرة من وضعه الحالى. فكان فى مبدأ أمره يمشى على أربع، وينتصب قائما أحيانا كما تفعل القردة العليا، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار، فأصبح رأسه من ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا فى الفضاء، فأتيح لمخه أن يكبر، فتكلم وتعلم، ورويدا رويدا على مدى من الزمن لا يكاد يحصى أصبح هو «الإنسان»!

وما نريد أن نناقش النظرية الداروينية ذاتها، ومدى صحة الفرضية التى قامت عليها، ففى الساحة العلمية اليوم أكثر من رأى بالنسبة لأصل الحياة وأصل الإنسان، ولم تعد النظرية الداروينية هى وحدها التى تحاول تفسير القضية، وتفرض نفسها على الساحة[1].

---

(١) انظر على سبيل المثال كتاب «أصل الإنسان» للعالم الفرنسى موريس بوكاى، إصدار مكتب التربية الخليجى.

ولكننا نقول إنه حتى على فرض صحة النظرية ـ وهو فرض جدلى لا نسلم به ـ فقد كانت هناك عدة انحرافات فى التطبيق بالنسبة للإنسان .

ففى النظرية التى اتخذت «التطور» اسماً لها ، وعَلَمًا عليها ، جرى التركيز على الخصائص الجديدة التى «يكتسبها» الكائن المتطور ، لا على السمات التى يشترك فيها مع الكائنات السابقة عليه ، التى لم تسر على خط التطور مثله . فهناك ـ مثلا ـ بحسب النظرية ، كائن ليس له جهاز سمعى ، تلاه فى التطور كائن يشبهه فى كثير من الخصائص ، ولكنه «اكتسب» جهازا سمعيا لم يكن موجودا فى الكائنات المشابهة له ، السابقة عليه ، والتى تطور عنها . فعند الحديث عن هذا الكائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديدة التى «اكتسبها» والأطوار التى مرت بها حتى اكتملت فى وضعها النهائى . وكذلك لو كان الكائن قد «اكتسب» جهازا بصريا أو جهازا للطيران ، أو جهازا لتنظيم الدورة الدموية . . إلخ ، مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم .

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على ما تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه ، التى تطور عنها ، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات . . وذلك كله على فرض صحة الفرضية من أساسها . . ولكن الذى جرى على يد داروين كان هو التركيز على أوجه الشبه بين الإنسان والقردة العليا (مع افتراض وجود حلقة مفقودة بينهما) أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان . . أى ـ بعبارة أخرى ـ التركيز على حيوانية الإنسان ، وليس على إنسانيته !

وقد حاولت «الداروينية الحديثة Neo Darwinism» سدّ هذا الخلل فى تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان ، فكتب «جوليان هكسلى Jullian Huxley» وهو من عمد الدراوينية الحديثة كتابا سماه «الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World» بدأه بفصل طويل بعنوان «تفرد الإنسان Uniqueness of Man» قال فيه إن المعلومات التى بنى عليها داروين كانت ناقصة ، وإن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين ، وجاء فى هذا الفصل قوله : «وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا . ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفى حالات كثيرة لا مثيل له . ولا يزال تحليل تفرد الإنسان

من الناحية البيولوجية غير تام». وجاء فيه: «.. وهكذا وضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات، كما تقول الأديان».[1] كما جاء فيه: «... وأخيرا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره»[2].

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة فماذا نرى؟

ما زال الإنسان حيوانا!

وما زال التركيز على الجانب «البيولوجى» من كيانه، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحى من الإنسان!

إن الذى تطور فى الإنسان - كما تقول الداروينية - هو عقله وإبهامه!

عقله تطور حين تعود الإنسان - أو الكائن الشبيه بالإنسان - على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر[3].. فارتكز رأسه على الجذع، فأتيح للمخ أن يكبر، فتعلم وتكلم.. وإبهامه تطور (لا أدرى لماذا!) فصار يحسن الإمساك بالأشياء فاستخدم الأدوات، ثم سعى إلى تحسينها، فصارت له حضارة.. وصار له تاريخ!

ولكنه فيما عدا هذا حيوان! كان وما يزال!

ولا ندرى على وجه التحديد ما الذى حدا بداروين - والداروينية الحديثة من بعده - إلى التركيز على الجانب الجسدى من الإنسان - أو البيولوچى كما يقول هكسلى - وإن كنت أحسب أن جو الصراع بين الكنيسة و «العلماء»، ورغبة هؤلاء فى مكايدة الكنيسة بتوهين ركائزها وتسخيف مقولاتها ونفى مقرراتها كان وراء هذا الاتجاه.. ولكن النتائج كانت خطيرة جدا، فى ميدان العلوم الاجتماعية بصفة خاصة.

ولأمر ما نشرت هذه النظرية على نطاق واسع فى كل الأرض[4]! ولكن الذى يعنينا منها هنا على أية حال هو تأثيرها على الدراسات الاجتماعية بالذات.

---

(١) يلاحظ أن چوليان هكسلى الذى يقول هذا الكلام كاتب ملحد شديد الإلحاد، متبجح بإلحاده. ولكن الحقائق «العلمية» فيما يتعلق بتفرد الإنسان تلجئه إلجاء لهذا الاعتراف الذى يحمل فى طياته دلالة واضحة.

(٢) چوليان هكسلى، الإنسان فى العالم الحديث، نشر مشروع الألف كتاب بالقاهرة، ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر، مقتطفات من ص ٣ - ص ٩ من الترجمة العربية.

(٣) يبدو أن همه الأكبر كان هو الأكل!

(٤) تقول «بروتوكولات حكماء صهيون» فى البروتوكول الثانى: لقد رتبنا لجاح داروين ونيتشه، وإن تأثير أفكارهما فى عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد!

الإنسان حيوان . . كان وما يزال! تطور منه ما تطور ولكنه لم يخرج من حيوانيته!

فما أهداف الحيوان؟ وما مشاغله؟

إن له هدفين رئيسيين : الأول صراع البقاء ، والثانى الاستمتاع ، المتمثل فى الطعام والشراب والجنس .

والحيوان يقوم بهذين الأمرين بدافع الغريزة ، بغير وعى منه لما يفعل ، ولا وعى منه بأنه يقوم بما يقوم به من أعمال وتصرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين فى حياته .

ولكن الحيوان المتطور قد «اكتسب» الوعى حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته ، فلم تعد كل أعماله غريزية ، بل حتى الغريزى منها صار الإنسان يمارسه بوعى منه ، يبدأ بإدراك الرغبة وينتهى إلى تحقيقها مرورا بالبحث عن الوسائل المؤدية إلى إشباعها . .

نعم! ولكن الأهداف هى الأهداف! صراع البقاء والاستمتاع .

فأما الحيوان فكان يستخدم قوته العضلية ليأخذ مكانه فى صراع البقاء ، وليحصل على ضروراته ، وأحيانا يستخدم الحيلة ولكن بوحى الغريزة ، وفى نطاقها .

وأما الحيوان المتطور فهو ـ إلى جانب عضلاته ـ يستخدم الأداة المستجدة التى «اكتسبها» فى تطوره ، وهى العقل ، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعليه ، وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر ـ تطور إبهامه ـ من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه .

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور ، باستخدام التطورين الرئيسيين فى كيانه ، فدخل فيه العقل على نطاق واسع ، يستجد كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع ، ويستخدم فى سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل ، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور!

وتنشأ من ذلك الحضارة . .

فالحضارة من جانب هى حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته فى صراع البقاء ، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر . .

فسعيه إلى إثبات ذاته فى صراع البقاء يتمثل فى القوة الحربية، والقوة السياسية، والقوة العلمية، والقوة الاقتصادية، وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل فى «الفن» بمختلف أنواعه إلى جانب المتاع الحسى المباشر بما يلبى نداء الشهوات. .

وهذه - بشقيها - هى معايير إنجازاته!

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التى تمكنها من البقاء فى حومة الصراع، وتكفل لها - كلما تمكنت - سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها. كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التى تستخدمها من أجل الاستمتاع.

ويكون هذا هو المعيار التاريخى، والاجتماعى، الذى تقاس به «عظمة» الأمم خلال التاريخ.

أين مكان «القيم» فى هذا التصور؟ . . نعنى ما نسميه «القيم العليا» من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير، وإشراك الناس فى الخير بدافع «الإنسانية» بصرف النظر عن «المنفعة»، والتعاون على البر والتقوى؟! هل لها مكان؟

إنها كلام جميل يتحدث عنه المتحدثون! وشعارات ترفع بين الحين والحين. . أو فى كل حين! ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد! فإنه لا مكان لها عند الحيوان الأصلى، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور!.

***

الخلل الثانى فى التصور الغربى هو دراسة الإنسان بمعزل عن خالقه، كأنما هو قد خلق نفسه، أو كأنما وجد بغير موجد! ويترتب على ذلك - عندهم - ألا تكون للإنسان مرجعية خارج حدود ذاته! إنما يكون «هو» مرجع نفسه، فما يراه «هو» يكون هو الأصل وهو الصواب. أى أنه - بعبارة أخرى - هو الإله.

ومن الواضح أن هذا الخلل فى فكر الغرب قد نشأ من الصراع ضد الكنيسة وطغيانها. أو قل: من فساد الدين الذى اعتنقته أوربا، والذى أفرز الكنيسة بادئ ذى

بدء، ثم أفرز طغيانها فى جميع المجالات التى طغت فيها : الروحية والمالية والفكرية والسياسية والعلمية، مما فصلناه فى غير هذا المكان[1].

لقد كان رد الفعل الأوربى تجاه فساد الدين وطغيان الكنيسة منذ عصر «النهضة» ـ كما أشرنا فى الفصل السابق ـ هو التمرد على سلطان الكنيسة، والتمرد على الله ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ وإقامة الإنسان نفسَه مرجعا بدلا من الله (وكان هذا ـ كما أشرنا من قبل ـ مولد «العلوم الإنسانية Humanities» أى العلوم التى يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من الوحى الربانى).

ولسنا نحن الذين نقول ذلك من عند أنفسنا، فكتاباتهم عن أنفسهم مليئة بمثل هذا.

خذ هذا النموذج من كتاب «مبادئ الفلسفة» تأليف رايو برث، يقول عن عصر النهضة :

«وامتاز هذا العصر بشعور الإنسان بشخصيته المطلقة، وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبار العالم كله وطنا له[2]. . . وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية، مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى. ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء «الإنسانيين». . . وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون «نمو الفردية» أعنى الرأى القائل بأن الإنسان ينبغى أن يفكر بنفسه لنفسه. وهو رأى كان قد أهمل فى عصر عبودية العقل»[3].

وخذ نموذجا أوضح وأصرح. يقول «جوليان هكسلى» فى كتابه الذى أشرنا إليه آنفا (الإنسان فى العالم الحديث) : إن الإنسان قد خضع لله فى الماضى بسبب عجزه

---

(١) انظر إن شئت فصل «دور الكنيسة» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) يغفل الكاتب ـ بطبيعة الحال ـ أثر احتكاك أوربا بالمسلمين، وتعرفها على الخرائط الإسلامية، ورغبتها فى التعرف على ما كان مجهولا لها من أرجاء الأرض، والرغبة فى استلاب خيرات المسلمين، فى بعث هذا الشعور فى نفوس الأوربيين.

(٣) رايو برث، مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد أمين، طبع دار الكتاب العربى ببيروت، ص ١١٩ ـ ١٢٠ من الترجمة العربية.

وجهله . والآن ـ وقد تعلم وسيطر على البيئة ـ فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله !

ويقول فى نفس الكتاب : إن أسطورة بروميثيوس ما تزال كامنة فى كيان الأوربى الحديث توجهه على غير وعى منه . فالأوربى المعاصر هو «بروميثيوس الحديث» الذى يريد أن يضع نفسه فى مكان الإله . وكلما تعلم ، وزادت سيطرته على البيئة ، ارتفع فى حس نفسه درجة ، وهبط الإله مقابل ذلك فى حسه بنفس القدر ، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما ، وأصبح هو الله .

﴿ قتل الإنسان ما أكفره * من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره *كلا لما يقض ما أمره﴾[1] ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[2] .

ولم يكن موقف الفارين فى الغرب من طغيان الكنيسة ، الفارين فى الوقت ذاته من الدين ومن فكرة الإله **﴿ كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة﴾**[3] خللا عقديا فحسب ، **﴿وكفى به إثما مبينا﴾**[4] إنما كان إلى جانب ذلك خللا علميا ، وإن ظنت أوربا ـ فى وهلتها ـ أنها ـ وقد اهتدت أخيرا إلى العلم ـ قد اهتدت إلى الأداة البديلة ، التى ستغنيها عن الدين ، وتوصلها فى الوقت ذاته إلى الحقائق النهائية التى لا يرقى إليها الشك ، مع تحرير العقل من الخرافة ، وتحرير الضمير الإنسانى من الطغيان !

يقول برنتون : «فالمذهب العقلى يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون . ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية ، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون»[5] .

ويقول : «إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم» (يقصد المعتقدات الدينية) ثم يقول : «الإله فى عرف نيوتن أشبه بصانع

---

(١) سورة عبس [١٧ ـ ٢٣] .
(٢) سورة العلق [٦ ـ ٧] .
(٣) سورة المدثر [٥٠ ـ ٥١] .
(٤) سورة النساء [٥٠] .
(٥) جرين برنتون ، منشأ الفكر الحديث ، ترجمة عبد الرحمن مراد ص ٢٧ .

الساعة . ولكن صانع هذه الساعة الكونية ـ ونعني بها الكون ـ لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد . فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد . أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة ليجروا عليها . وإنه ليبدو أنه ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية ، الذى لا يستطيع ـ إذا ما أراد ـ التدخل فى شئون عمله»[1] !!

وقد أفضت دراسة الكون والحياة بمعزل عن الخالق ـ سبحانه ـ إلى اختلالات علمية كثيرة ، إلى جانب كونها كفرا بالله تعالى شأنه ، من القول بحتمية «قوانين الطبيعة»[2] والقول بالطبيعة الخالقة «التى تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق»[3] ! والقول بالخلق الذاتى[4] ، والقول بأزلية المادة وأبديتها . . إلخ .

ولكن الخلل فى دراسة الإنسان كان أشد وأبعد أثرا من الخلل فى دراسة الكون والحياة ، إذ ترتب عليه سوء فهم فى كثير من مجالات النشاط البشرى ، وبروز كثير من التفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان !

ونضرب مثالا للتقريب . . .

لو فرضنا أنه أتيحت لك طاقة كهربائية تستطيع أن تستخدمها فى مجالات شتى ، فهل يكون سلوكا «علميا» سليما أن تقول : لا يهمنى مصدر هذه الطاقة ، ولن أشغل نفسى بمحاولة التعرف على هذا المصدر . إنما الذى يعنينى هو هذه الطاقة ذاتها ، وطريقة استخدامها ، والمجالات التى يمكن أن تستخدم فيها؟!

فكيف إذا فاجأتك هذه الطاقة بأمور لا تستطيع تفسيرها ، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجه الأمثل ، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك . . مرة تنير ، ومرة تحرق . . مرة تزيد من حيويتك ومرة تعرضك للهلاك ! ألا يعينك التعرف على المصدر ، وطبيعته ، وطريقة تصريفه لهذه الطاقة ، على فهم تلك الظواهر التى لا تفسير لها عندك ، ويعينك ذلك على استخدام تلك الطاقة فى أحسن أوضاعها؟!

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١ .

(٢) بما ينفى المعجزة ، وينفى قدرة الله على التصرف فى الكون بما يخالف السنة الجارية !

(٣) هذه قولة داروين .

(٤) هذه قولة الملاحدة من «علماء!» الحياة .

ذلك مجرد مثال للتوضيح . . ولله المثل الأعلى . فواجب عبادته سبحانه وتعالى والتعرف عليه لا ينحصر فى أنه هو مصدر الوجود البشرى وخالقه ، إنما هو إلى جانب ذلك هو المنعم المتفضل . هوالرزاق ذو القوة المتين . هو المدبر لأمر الوجود كله . هوالفعال لما يريد . هو مالك يوم الدين . ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾[1] وهو الذى ﴿يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[2] .

ثم إن له سننا تجرى فى حياة الناس بما يشاء سبحانه ، ليس كلها خاضعا لمنطق العقل البشرى ، وإن كان لها حكمتها عند الله ، كالإملاء للكفار والطغاة قبل التدمير عليهم ، وفتح أبواب كل شىء عليهم حين ينسون الله والآخرة نسيانا كاملا ، كما فى قوله تعالى :

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾[4] .

وقوله تعالى :

﴿وأملى لهم إن كيدى متين﴾[5] .

وقوله تعالى :

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾[6] .

وكتوزيع الأرزاق بين الناس (والمواهب من الرزق) ، وبسط الرزق وقبضه :

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾[7] .

(١) سورة الحديد [٣].
(٢) سورة البقرة [٢٨].
(٣) سورة الأنعام [٤٤] .
(٤) سورة البقرة [١٥].
(٥) سورة الأعراف [١٨٣].
(٦) سورة الأعراف [٩٥].
(٧) سورة الزخرف [٣٢].

﴿يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾[1]

وكلها أمور تصبح مفهومة حين تعرف حكمتها، فأما قبل معرفة الحكمة منها فهى تؤدى إلى فهم خاطئ، وإلى تصور خاطئ يؤدى إلى الظن بعبثية الحياة وعدم خضوعها لنظام ولا تدبير، مما يؤدى بدوره إلى استهتار بالقيم، وانفلات من الضوابط.

فإذا لم نتعرف على السنن الربانية التى تحكم حياة الإنسان، فهل تكون دراستنا «موضوعية»؟! وهل تكون النتائج التى نحصل عليها نتائج صحيحة من الوجهة العلمية؟!

ثم إننا حين ندرس الإنسان بمعزل عن خالقه، وعن السنن الربانية التى تحكم حياته، فما المعيار الذى نقيس به تصرفاته؟ وما معيار إنجازاته؟ من الذى نعتبره مرتفعا راقيا ومن الذى نعتبره منتكسا هابطا؟ أم الكل سواء؟! وأى التصرفات نعتبره خيرا وأيها نعتبره شرا؟ أم لا خير ولا شر؟! وأى الإنجازات نعتبره صالحا وأيها نعتبره فاسدا؟ أم يستوى الأمران فى الميزان؟!

من هنا تتخبط النظريات وتتخبط التفاسير التى تحاول أن تفسر السلوك البشرى والحياة البشرية، ما بين مبدأ اللذة والألم، ومبدأ النفعية، ومبدأ نسبية القيم؛ وما بين التفسير المادى للتاريخ، والتفسير اللبرالى؛ وما بين الغاية التى تبرر الوسيلة، واللاغائية، والعدمية، والفوضوية، والوجودية.. وكلها مذاهب، وكلها تفاسير!!

***

إذا جمعنا حصيلة الخللين الأساسيين فى التصور الغربى للإنسان، نجد أن الإنسان فى ذلك التصور حيوان متأله! حيوان بحكم منشئه. متأله بحكم جعله نفسه حكما مطلقا فى كل ما يتعلق به من الأمور: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والخلقية والفنية.. إلخ. ونجد أن هذا الحيوان المتأله هو موضع الدراسة فى جميع الدراسات الاجتماعية، سواء علم الاجتماع أو علم الاقتصاد أو علم التاريخ أو علم التربية أو علم النفس، أو حتى الدراسات الأدبية.. حيوان يعيش بأهداف الحيوان، ويرفض فى الوقت ذاته أن يكون له مرجع يرجع إليه فى تصرفاته سوى ما يراه «عقله» أو بالأحرى ما يجرى به هواه.

(1) سورة القصص [82].

فإذا أضفنا إلى ذلك خللا ثالثا فى النظرة الغربية لا يقل خطورة عن الخللين السابقين، هو دراسة الإنسان كأنه يعيش حياته الدنيا وحدها، ولا معاد له فى الآخرة، فقد اختلت الموازين تماما، ولم يبق شىء فى الرؤية على وجهه الصحيح!

إن اعتبار الحياة الدنيا هى المبدأ والنهاية يؤثر تأثيرا بالغا فى رؤية الإنسان للأشياء، ليس فقط من الناحية الاعتقادية، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية. فحين يكون أمامك منظر متكامل تعرف مبدأه ومنتهاه، وتستطيع أن تعرف مكان كل جزئية فيه، ودلالتها فى المنظر المتكامل، ثم تقتطع جزءا من المنظر، وتقول: يكفينى هذا الجزء، ولست بحاجة إلى باقيه! هل يكون سلوكك «عقلانيا»؟ وهل يكون واقعيا؟ وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة؟!

إن إدراك الدلالة الخاصة لكل جزئية فى الصورة يرتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل فى الصورة. أما فى القطاع الذى تقتطعه ـ أيا كان حجمه ـ فكيف تأخذ الجزئية دلالتها؟ وكيف تتكامل النظرة؟ فإذا كان الجزء الذى اقتطعته هو الأصغر، والمتروك هو الأكبر، فأى خلل يمكن أن ينشأ فى الرؤية، وإلى أى مدى تفقد الجزئيات دلالتها؟!

والعلوم الاجتماعية التى نشأت وترعرعت فى الغرب فى ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة، قد ألغت اليوم الآخر من حسابها تماما، على أنه «غيبيات» لا تخضع للبحث العلمى، و«ميتافيزيقيا» ضارة ومعوّقة عن التقدم العلمى والعمرانى، فلا ينبغى الاهتمام بها والالتفات إليها! ونشأ من ذلك اختلال هائل فى رؤية القيم والأهداف.

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها، ويعتقد أن ما يجنيه فيها من خير أو شر هو الحصيلة النهائية لجهده، وألا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء فى الآخرة، فكيف تكون قيمه، وكيف تكون أهدافه؟

لا جرم يركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان: الغلبة فى صراع البقاء، والاستمتاع، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هى أدوات الحيوان المتطور، أى باستخدام العقل، واستخدام العدد والآلات. . ومن هنا يبرز مثل هذا الشعار: القوة هى الحق!!(Might is right) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها

وبعض هو قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق ، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان . وإن كان الكلام «الحلو» الذى تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر ، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولى ، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق «الآخرين»! ولا ينفى هذا أن تكون هناك «أخلاقيات» فى السياسة والاجتماع ، وعلاقات الناس بعضهم وبعض فى داخل كل تجمع على حدة ، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية ، ولكنها - باعترافهم - أخلاقيات نفعية ، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك فى التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن ، وتوجيه العدوان إلى «الآخرين»! ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيوانى بأقل قدر من المنغصات . . وحتى هذه «الأخلاقيات» كما يقول دوركايم دائمة التقلب لا تثبت على حال!

إذا جمعنا هذه الاختلالات الثلاثة ، وتأثيرها على الدراسات الاجتماعية فى الغرب فماذا نجد فى النهاية؟

وإن هذه الدراسات لا تتحدث عن الحقيقة الشاملة للإنسان ، ولا عن كل حالاته ، إنما تتحدث عن حالة معينة من حالاته ، هى حالة «الجاهلية» التى ينتكس إليها الإنسان حيث يستكبر عن عبادة الله ، ويرفض اتباع منهج الله ، فيكون الناس فيها ﴿**كالأنعام بل هم أضل**﴾[1] ويكون الهوى هو المعبود على الحقيقة ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾[2] . . ثم يقال هذا هو الإنسان!! وتتأسس على ذلك «علوم» ، وتسمى «العلوم الإنسانية»!!

***

الإنسان فى التصور الإسلامى كائن مختلف تماما! لا هو حيوان ولا هو إله! وإنما هو إنسان!

خلق إنسانا من أول لحظة!

﴿**إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] .
(٢) سورة الجاثية [٢٣] .
(٣) سورة ص [٧١ - ٧٢] .

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾[1] .

وهو فى جميع أحواله إنسان؛ فيه صفات الإنسان مهما علا ومهما سفل . وإنه ليعلو فيكون ـ فى رأى بعض العلماء ـ أعلى من الملائكة ، وإنه ليسفل حتى يكون ـ بشهادة خالقه سبحانه ـ أقل من الحيوان . . ولكنه دائما هو «الإنسان» .

وربما نستطيع أن نفسر هذه الحقيقة إذا رجعنا إلى طبيعة تكوينه : إنه قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله . فأما قبضة الطين فهى جسده بكل ما يحويه من نوازع وشهوات . وأما نفخة الروح التى اتحدت بقبضة الطين وامتزجت بها امتزاجا ، فقد جعلت لها ماهية خاصة ، فقد منحتها الوعى والإرادة والحرية ، وأذهبت عنها عتامة الطين . .

الوعى والإرادة والحرية هى الكيان الإنسانى . . هى حقيقة الإنسان ، التى تصحبه فى جميع حالاته وفى جميع تصرفاته الإرادية ، مهما علا ومهما سفل . فهو يعلو وهو واعٍ مريد ، ويسفل وهو واعٍ مريد ، وله دائما قدر من الحرية يعلو به حين يشاء ، ويسفل به حين يشاء ، ولكنه يعلو حين تضىء فى كيانه إشراقة الروح فتصله بالله فيزكى نفسه ، ويسفل حين تنطفئ فى كيانه تلك الإشراقة الملهمة ، فيتدنى مع ثقلة الشهوات :

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾[2] .

ثم إن له بطبيعة خلقته تلك طريقين اثنين لا طريقا واحدا كالحيوان أو كالملاك . الحيوان طريقه هو الغريزة الحيوانية التى ترسم له أعماله وتحدد له تصرفاته فلا يملك أن يخالفها ، والملك طريقه هو الغريزة النورانية الشفيفة ، إن جاز لنا أن نسميها غريزة : غريزة الطاعة الخالصة لله ، والعبادة الخالصة لله :

﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[3] .

---

(١) سورة الإنسان [٢] .

(٢) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .

(٣) سورة الأنبياء [٢٠] .

﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1].

أما الإنسان فهو في كل لحظة من لحظاته على مفرق طريق: على رأس طريقين، أحدهما طاعة الله والآخر طاعة الشيطان الذى يحرض على معصية الله. وفى كل لحظة من لحظاته يستمع إلى أحد النداءين فيتجه إليه، ويصم سمعه عن النداء ا لآخر. يستمع إلى النداء الربانى المنزل على الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، فيعبد، ويطيع، ويصم أذنه عن نداء الشيطان. أو يستمع إلى نداء الشيطان، فيتجه إليه، ويصم أذنه عن النداء الربانى، ولكن على صورتين مختلفتين فى المدى والعمق والنية المصاحبة. إما غفلة مؤقتة عن النداء الربانى، تتبعها الصحوة، والاستغفار والتوبة، وذلك شأن المؤمنين، وإما غفلة كاملة عن النداء الربانى، وانصياع كامل واعٍ لنداء الشيطان، وهو الكفر والعياذ بالله.

فأما الأولون فلا يخرجون من رحمة الله سواء عاقبهم على غفلتهم العارضة أو شملهم بعفوه. أولئك يقول الله عنهم:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[2].

﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليمًا حكيمًا﴾[3]

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾[4].

وأما الآخرون فيقول الله لهم:

﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التى كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾[5].

---

(١) سورة التحريم [٦].
(٢) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦].
(٣) سورة النساء [١٧].
(٤) سورة الأنعام [٥٤].
(٥) سورة يس [٦٠ - ٦٤].

ومن كون الإنسان له طريقان لا طريق واحد، وله القدرة على التمييز بين الطريقين، والقدرة على اختيار أحد الطريقين وجد الخير والشر في حياة الإنسان، ووجدت القيمة الخلقية المصاحبة للعمل.

كل عمل يعمله الإنسان بوعيه وإرادته له قيمة خلقية لاصقة به، فيوصف بأنه خير أو شر. وليست هذه القيمة الخلقية مفروضة عليه من خارج كيانه كما يزعم علم الاجتماع الجاهلى[1]، أو علم النفس الجاهلى[2]. إنها نابعة من تكوين الإنسان ذاته. من كون أن له طريقين، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحد الطريقين.

فالحيوان لا توصف أعماله بأنها خير أو شر، لأنه لا خيار له فيها، وليس له إلا طريق واحد يسلكه بدافع الغريزة، ولا يملك غيره. أما الإنسان الذى يميز بين طريقين ويختار أحدهما بإرادته فإن أعماله الإرادية لابد أن توصف بأنها خير أو شر، ولا يمكن فصل أعماله عن القيمة الأخلاقية المصاحبة لها.

إنما «المعايير الخلقية» هى التى يمكن أن تفرض من خارج الكيان الفردى.. المعايير التى تحدد أن عملا بعينه يعتبر خيرا وأن عملا آخر يعتبر شرا. وهذه هى التى يختلف الناس في تقديرها حسب مصدر التلقى الذى يتلقون منه القيم والمعايير. أما أن يزعم زاعم - كما يزعم بعض «علماء!» الغرب - أن الإنسان ليس كائنا أخلاقيا فى ذاته، إنما تفرض عليه القيم الأخلاقية من خارج كيانه، فهذا زعم تفردت به الجاهلية المعاصرة من بين كل جاهليات التاريخ!

أما السلطة التى تقرر المعايير - ولابد من سلطة تقرر - فتقول هذا خير وهذا شر. هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح - هذه السلطة عند المؤمن هى الله سبحانه وتعالى، الذى له الأمر بمقتضى أنه هو الخالق:

﴿ألا له الخلق والأمر﴾[3].

أما عند الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فالسلطة التى تقرر المعايير هى سلطة بشرية لا ترجع فى تقديراتها إلى الله، سواء كانت هى الدولة أو المجتمع أو «الطبقة

---

(١) انظر دوركايم.

(٢) انظر فرويد

(٣) سورة الأعراف [٥٤].

المستغلة» . . أو الهوى والشهوات! وهى فى جميع أحوالها سلطة جاهلية لأنها تحكم فى الأمور بغير ما أنزل الله .

***

هذا الإنسان ـ بخصائصه تلك ـ خلق لغاية :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(١) .

والعبادة ـ بوصفها خلقا أو طبيعة أو سلوكا أو توجها ـ عميقة الجذور فى الفطرة البشرية :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾(٢) .

﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٣) .

ولكن الفطرة تستقيم أحيانا وتعتل أحيانا ، فتستقيم العبادة تبعا لذلك أو تعتل . فأما أصحاب الفطرة السوية فيعبدون الله وحده بلا شريك ، لأنه وحده الحقيق بالعبادة ، وأما أصحاب الفطر المعتلة فيعبدون آلهة أخرى ، مع الله أو من دونه سواء . . ويكون معبودهم الحقيقى هو الشيطان .

وكون العبادة من الفطرة ، تصح مع صحتها وتنحرف مع مرضها ، كان بديهية واضحة فى حياة البشرية ، حتى جاءت الجاهلية المعاصرة فزعمت ـ لأول مرة فى التاريخ ـ أن العبادة ليست أصلا ثابتا فى كيان الإنسان ، إنما هى حالة مرت بالبشرية فى طور من أطوارها ثم «برئت» منها ، حين أدت مهمتها واستنفدت أغراضها . . و«تحرر» الإنسان من «الدين»(٤)!

---

(١) سورة الذاريات [٥٦] .

(٢) سورة الأعراف [١٧٢] .

(٣) سورة الروم [٣٠] .

(٤) يقول دوركايم فى كتابه «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» : كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة أشياء فى الفطرة ولكن التاريخ يطلعنا على أنها ليست فطرية فى الإنسان!

أى عبادة للشيطان أشد من هذه العبادة؟!

إن «المعبودات» اليوم لا تكاد تحصى! فهى أحيانا «الدولة» وأحيانا «الوطن» وأحيانا «القومية» وأحيانا «النظام» وأحيانا «الزعيم الأوحد» وأحيانا «المصلحة القومية» وأحيانا «الرأى العام» - المحلى أو العالمى - وأحيانا «الإنتاج» وأحيانا «العقل» وأحيانا «العلم» وأحيانا «التقدم» وأحيانا «الموضة» . . كلها معبودات ترسم للناس مناهج حياتهم فيعمل الناس بوحيها وأمرها فى الوقت الذي يعصون فيه أوامر الله، ويستكبرون عن عبادة الله!

وحين يخيل لإنسان ما فى لحظة ما أنه متحرر تماما من كل عبادة، ليس لأحد ولا لشيء عليه سلطان . . ففى تلك اللحظة ذاتها يكون غارقا فى العبادة حتى أذنيه . . عبادة الهوى والشهوات:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[1].

كلا! إن العبادة جزء من الفطرة، كامن فى أعماقها . . تستقيم الفطرة فتستقيم العبادة، وتعتل فتعتل معها العبادة، وتتشتت فى اتجاهات مختلفة:

﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾[2].

***

والعبادة - الصحيحة - هى كما يقول ابن تيمية رحمه الله: اسم شامل لكل ما يحبه الله ويرضاه. وقد فصلتها الكتب المنزلة من عند الله، ثم أخذت صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة فى الرسالة الخاتمة المنزلة على رسول الله ﷺ:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[3].

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾[4].

---

(١) سورة الجاثية [٢٣].
(٢) سورة الأنعام [١٥٣].
(٣) سورة المائدة [٣].
(٤) سورة المائدة [٤٨].

وهى تشمل عدة أمور، تضم فى إطارها جملة الحياة:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت.. ﴾[1].

تشمل الاعتقاد اليقينى الجازم بأن الله واحد لا شريك له، متفرد فى أسمائه وصفاته وأفعاله.

وتشمل توجيه العبادة - بكل أنواعها - لله وحده بلا شريك، سواء كانت العبادة صلاة أو نسكا أو دعاء أو استغاثة أو استعانة أو ذبحا أو نذرا أو موالاة أو معاداة أو موادّة أو مباغضة.

وتشمل التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع.

وتشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى الذى يحدد الحلال والحرام، والمباح وغير المباح، والحسن والقبيح.

وتشمل الأخلاق والأفكار والمشاعر والسلوكيات التى يحبها الله.

وكلها - فى المنهج الربانى - داخلة فى مقتضيات لا إله إلا الله، التى تشمل الصلاة والنسك والمحيا والممات، وتوجهها كلها لرب العالمين[2].. وإن كانت المخالفة عن أمر الله فيها لا تندرج كلها تحت حكم واحد، فمنها ما هو مخرج من الملة، كشرك الاعتقاد، وشرك العبادة، وشرك التحاكم - عن إرادة ورضى - إلى غير شريعة الله. ومنها ما يكون نقصا فى الإيمان ولكنه لا ينقض أصل الإيمان.

والعبادة بهذا المعيار منهج حياة كامل، يشمل فى أطوائه كل نشاط الإنسان.. يشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والفن.. كما يشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالبشر من حوله، وعلاقته بالكون والحياة. فأما الذين استقاموا على الهدى فهم يستمدون من المنهج الربانى منهج حياتهم، فى الصغيرة وفى الكبيرة. وأما الذين أبوا واستكبروا فحياتهم نهب للشياطين:

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣].

(٢) اقرأ إن شئت «مقتضيات لا إله إلا الله فى الرسالة المحمدية» من كتاب «لا إله إلا الله».

﴿يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[1] .

و«الإنسان» فى أى وضع من أوضاعه هو أحد اثنين لا ثالث لهما - أيا كان جنسه ولونه ولغته وثقافته ومبلغه من «العلم» ومبلغه من الحضارة ومبلغه من الثروة ومبلغه من القوة - فهو إما ذلك الذى يستمد منهج حياته من المنهج الربانى ، وإما ذلك الذى يستنكف أن يأخذ عن الله منهج حياته ، ويستكبر عن عبادة الله :

﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾[2] .

ولا يعنى هذا التقسيم «المبدئى» أنه لا توجد تقسيمات أخرى ومفاضلات أخرى بين البشر .

فلا المؤمنون كلهم نوعية واحدة ودرجة واحدة ، ولا الكافرون كذلك .

يقول تعالى عن المؤمنين :

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾[3] .

﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾[4]

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[5] .

﴿ولكل درجات مما عملوا ﴾[6] .

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير»[7] .

---

(١) سورة البقرة [٢٠٨] .
(٢) سورة التغابن [٢] .
(٣) سورة فاطر [٣٢] .
(٤) سورة النساء [٩٥] .
(٥) سورة الحجرات [١٣] .
(٦) سورة الأنعام [١٣٢] .
(٧) أخرجه مسلم .

والكفار جميعا ملعونون ولكنهم كذلك درجات، بعضهم أشد كفرا من بعض. ومنهم من هو فى ضحضاح من النار ومنهم من هو فى الدرك الأسفل من النار. وفى الدنيا كذلك فيهم خيار وفيهم دون ذلك.

ولكنهم كلهم بشر، فيهم الخصائص الرئيسية للإنسان: فيهم الوعى والإرادة والحرية، ويفترقون فى إشراقة الروح، فهى عند المؤمن عنصر فعال يرفعه إلى أعلى ويزكى نفسه، وعند الكافر عنصر مطموس لا يعمل، فتهبط به ثقلة الطين.

***

وهذا الإنسان - الذى زوده الله بهذه الخصائص: الوعى والإرادة والحرية - ليس مخلوقا عبثا، وليس متروكا سدى. إنما هو مسئول.. مسئول فى الدنيا والآخرة، مقابل هذه الخصائص التى أعطيت له:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[1]

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[2].

كلا! إنه مسئول عن كل تصرف يتصرفه فى الحياة الدنيا بوعيه وإرادته وحريته.

وتتمثل مسئوليته فى أنه مفطور على حب الاستمتاع، وأن المتاع موجود فى الحياة الدنيا ومتاح، ولكن الله رسم له حدوداً معينة (هى التى يعلم سبحانه أنه يتحقق بها الخير فى الحياة الدنيا) ووضَعَ الإنسانَ مقابل ذلك المتاع.. للابتلاء - بمعنى الاختبار - وجعل موضوع الاختبار هو: ماذا يأخذ من متاع الدنيا وماذا يدع. وما الطريقة التى يأخذ بها ما يأخذ ويدع بها ما يدع. والمحك هو الالتزام بحدود الله أو تجاوز الحدود:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا﴾[3].

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾[4].

---

(١) سورة المؤمنون [١١٥].

(٢) سورة القيامة [٣٦].

(٣) سورة الإنسان [٢].

(٤) سورة الكهف [٧].

﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[1] .

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[2] .

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾[3] .

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾[4] .

ومقابل الالتزام جنة عرضها السموات والأرض . ومقابل التجاوز عذاب لا يقف عند حد .

﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾[5] .

والإنسان فى ذلك جزء من بنية هذا الكون الهائل العظيم ، الذى خلقه الله بالحق . ولا يتم هذا الحق بالنسبة للإنسان حتى يحاسب فى اليوم الآخر عما فعله فى الحياة الدنيا ويأخذ جزاءه عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا . إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾[6] .

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾[7] .

---

(١) سورة البقرة [٣٦] .
(٢) سورة آل عمران [١٤] .
(٣) سورة البقرة [٢٢٩] .
(٤) سورة البقرة [١٨٧] .
(٥) سورة النساء [١٣ ـ ١٤] .
(٦) سورة يونس [٤] .
(٧) سورة ص [٢٧] .

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1] .

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[2] .

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[3] .

ومن ثم فليس الإنسان حرا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . فذلك شأن الإله سبحانه وتعالى ، والإنسان ليس إلها :

﴿.. إن الله يفعل ما يريد ﴾[4] .

﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[5] .

وكذلك ليس ساقطا عنه التكليف كالحيوان ، لأنه ليس حيوانا . ولا هو مقهور على التصرف بطريقة معينة كالكون المادى . . إنما هو «إنسان» ذو وعى وإرادة وحرية فى نطاق معين . وعلى قدر هذا النطاق يسأل عما يفعل ، ويجازى عليه .

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين * والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[6] .

***

ما النطاق المتاح للإنسان؟!

إنه النطاق المتناسب مع وظيفته :

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١] .

(٢) سورة الأنبياء [٤٧] .

(٣) سورة الزلزلة [٧ ـ ٨] .

(٤) سورة الحج [١٤] .

(٥) سورة الأنبياء [٢٣] .

(٦) سورة الأعراف [٦ ـ ٩] .

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[1].

وهذا الخليفة مكلف بعمارة الأرض:

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[2].

ومزود بالأدوات التى تعينه على عمله، ومسخّرة له المواد التى يحتاج إليها فى العمل:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[3].

﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه﴾[4].

ولكنه مكلف - في عمارته للأرض - أن يعمرها بمقتضى المنهج الربانى:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[5].

فى هذا النطاق منح الحرية التى تقابلها المسئولية.

فهو يملك أن يعمّر الأرض بمقتضى المنهج الربانى إذا شاء والتزم، ويستطيع كذلك أن يعمرها بمناهج من عند نفسه يخالف بها أمر الله إذا شاء ألا يلتزم. ولكن لا تجرى الأمور فى الحالتين على صورة واحدة - وإن تشابهت أحيانا - إنما تختلف النتائج فى الدنيا وفى الآخرة على السواء، بمقتضى سنن لا يملك الإنسان أمرها، إنما هى سنن إلهية، الله هو الذى قررها وقدرها، وهو الذى يجريها بمشيئته فى حياة الإنسان، ولا يملك الإنسان إزاءها إلا الإذعان، وإن كابر وزعم أنه إله!

وبين حرية الاختيار وحتمية السنن التى لا تتبدل ولا تتحول تسير الحياة البشرية فى مجراها الذى قدره الله، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

***

(١) سورة البقرة [٣٠].
(٢) سورة هود [٦١].
(٣) سورة النحل [٧٨].
(٤) سورة الجاثية [١٣].
(٥) سورة البقرة [٣٨-٣٩].

فى عمارة الأرض يحتاج الإنسان إلى السمع والأبصار والأفئدة .

السمع والأبصار والحواس جميعا هى أدواته للتعرف على ما حوله ، والتعرف على الكون المادى ، وعلى خصائص المادة التى سيستخدمها فى عمارة الأرض . . وهو يستخدمها بجهد يبذله ـ مكتوب عليه فى قدر الله . .

﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾[1] .

﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾[2] .

فبغير الجهد لا يصل إلى شىء ، لأنه ليس إلها يقول للشىء كن فيكون ، إنما هو «إنسان» له قدرة ممنوحة له من عند الله ، ولكنها قدرة محدودة بالقياس إلى القدرة التى لا تحد . . قدرة الخالق العظيم التى لا يعجزها شىء فى السموات ولا فى الأرض .

وهو حرى أن يعرف حدود قدرته تلك لكيلا يطغى بها على الخلق ، ولا يتمرد بها على سلطان الله ، بدلا من أن يشكر المنعم الوهاب الذى منحه ما منحه من القدرات والخيرات :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[3] .

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار﴾[4] .

ولكن السمع والأبصار ، وما تؤدى إليه من الإدراك الحسّى ، وما ينشأ عن ذلك من «علم» ، وما يؤدى إليه ذلك العلم من عمل فى عمارة الأرض . . كل ذلك لا يفى بتحقيق ما خلق الله الإنسان من أجله :

﴿كلا لما يقض ما أمره﴾[5] .

لابد مع السمع والأبصار من «الأفئدة» التى وهبها الله للإنسان لتحقيق غاية معينة ، لا يتم تحقيق غاية وجوده إلا إذا أداها .

---

(١) سورة البلد [٤] .
(٢) سورة الانشقاق [٦] .
(٣) سورة النحل [٥٣] .
(٤) سورة إبراهيم [٣٤] .
(٥) سورة عبس [٢٣] .

الأفئدة هى الأداة التى تصل الإنسان بالله، يحبه ويخشاه، ويتطلع إليه فى كل خطوة، ويدعوه ويستغفره ويتوب إليه، ويستمد منه العون، ويطلب منه التوفيق:

﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾(١).

وهى الأداة العظمى فى العمارة الحقيقية للأرض. فليست العمارة المادية وحدها هى المطلوبة من الإنسان فى الأرض، إنما هى عمارة «القيم» التى تحقق ما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض بحيث يجرى الأمر فيها حسب المنهج الربانى الذى أنزله الله لعمارة الحياة الدنيا، وجعل جزاءه النعيم الخالد فى الآخرة.

وهذه القيم، وهذه العمارة القائمة على القيم هى المهمة الحقيقية للإنسان، التى بدونها لا يكون قد عمل شيئا في الحقيقة، ويكون عمله كبناء أقيم على جرف هار:

﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين﴾(٢)

من أجل ذلك يقول الله عن الذين يعطلون هذه الأداة الضخمة أنهم يلغون حتى سمعهم وأبصارهم، لا لأنها لا تدرك الإدراك الحسى، ولكن لأنها غافلة عن دلالة ما تسمع وما ترى فكأنها غير موجودة مادامت لا تؤدى مهمتها:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(٣).

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾(٤).

***

(١) سورة الإسراء [٥٧].
(٢) سورة التوبة [١٠٩].
(٣) سورة الأعراف [١٧٩].
(٤) سورة الأنعام [١١٢-١١٣].

يقوم الإنسان بعمارة الأرض مدفوعا بدوافع كامنة فى الفطرة . . أوجدها فيها الخالق الذى كلفه بتلك العمارة وأعانه عليها، وأمده بالأدوات اللازمة للقيام بها . . فما معيار إنجازاته فى عمارة الأرض؟

لكل عمل يعمله درجة، والنجاح والفشل مرهون بمجموع الدرجات .

نعم . . ولكن!

فى المنهاج الربانى «مادة رسوب» - إذا استعرنا الاصطلاح - يعتبر الإنسان راسبا إذا رسب فيها، ولو حصل على النهاية العظمى فى سائر المواد ! تلك المادة هى الإيمان بالله واليوم الآخر! .

إن استغلال الحواس مطلوب . واستخدام العقل مطلوب . وتسخير الطاقات التى أودعها الله فى السموات والأرض مطلوب . والتحسين والتجميل والتكميل مطلوب[1] . وبذل الجهد - العضلى والعقلى - لتحقيق ذلك كله مطلوب . وكله ينال الإنسان عليه درجات بمقدار ما يبذل من الجهد . . ولكن هذا كله لا يضمن النجاح - فى المنهاج الربانى - بغير الإيمان بالله واليوم الآخر . . ويعتبر الإنسان راسبا إذا رسب فى هذه المادة الرئيسية!

وهنا مفرق الطريق بين مفهوم الإسلام ومفاهيم الجاهلية!

إن الجاهلية تعتبر أن النجاح فى العمارة المادية للأرض . فى اكتساب القوة والتمكن . فى الغلبة والسيطرة . فى استخدام العقل والحواس، ثم فى الاستمتاع بمتاع الأرض . . هو قمة النجاح الذى لا يحتاج الإنسان معه إلى شىء، ولا يحتاج بعده إلى شىء . .

وكان يمكن أن يكون هذا معيارا صحيحا لو أن الإنسان هو الإله! هو الذى يقدر المقادير، وهو الذى يقرر لنفسه مبدأه ومنتهاه، ومشيئته هى النافذة فى الكون وفى الحياة!

فهل هو بالفعل كذلك؟!

---

(١) سنتكلم عن هذه النقطة فيما بعد .

فما باله «عاجزا» فى أمور لا تحصى، تزيد عددا ومدى وأثرا عن كل ما يعتبر نفسه «قادرا» عليه، حتى لو ظن - فى غفلته - أن قدرته فيما هو قادر عليه هى من عند نفسه وليست من عند الله:

﴿قال إنما أوتيته على علم عندى﴾(1).

﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾(2).

ما بال علمه قاصرا حتى عن الإحاطة بكل ما تشمله نقطة صغيرة فى فضاء الكون - هى الكوكب الذى يعيش فيه - والكون فيه من أمثالها الملايين، ومن أضعاف أضعافها الملايين، بل ملايين الملايين؟

ما باله عاجزا عن علم الغيب.. لا غيب السنوات القادمات بل غيب الغد القريب، بل غيب اللحظة التى بدأت منذ لحظة ولما تنته بعد؟!

بل ما باله فى لحظات الضيق ينسى قدرته المزعومة ويلجأ إلى القوة الحقيقية التى تملك كل شىء:

﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا﴾(3).

بل ما باله يقف عاجزا أمام ما يسميه «كوارث الطبيعة» من زلزال مدمر، أو إعصار كاسح، أو فيضان هادر؟.

بل ما باله لا يملك حتى الهواء الذى يتنفسه، وحتى الماء الذى يشربه؟

﴿أم من يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور﴾(4).

فإذا كان هذا هو الإنسان فى حقيقته، فما قيمة انتفاشته الفارغة حين يقول: أنا أقرر

---

(1) سورة القصص [78].

(2) سورة الزمر [49].

(3) سورة الإسراء [67].

(4) سورة الملك [21].

لنفسى المعيار؟! أو حين يقول : لقد شب الإنسان عن الطوق ، ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله!!

وما قيمة أن تقوم «علوم» تجعل معيار النجاح هو ذلك المعيار الجاهلى ، سواء كانت اقتصادا أو اجتماعا أو تاريخا أو تربية أو علم نفس ، وتغفل «مادة الرسوب» ، وهى المادة التى لا ينجح فى ميزان الله من رسب فيها ولو ملك كل ما فى الأرض ومثله معه ، بينما الميزان فى يد الله سبحانه وتعالى وليس فى يد الإنسان؟!

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[1] .

﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد﴾[2] .

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[3] .

أما أنهم ينجحون فى الدنيا . . فنعم! حين يبذلون الجهد اللازم ويتخذون الأسباب! ولكن لولا أن الله كتب لهم النجاح بهذه الأسباب ـ لحكمة يريدها ـ ما نجحوا من تلقاء أنفسهم ، لأن الأسباب لا تفعل من ذات نفسها ولكن بتقدير الله لها ، ويجرى النجاح بها بسنة مقدرة من عند الله :

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[4] .

بل أكثر من ذلك!

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾[5] .

---

(١) سورة الفرقان [٢٣] .

(٢) سورة إبراهيم [١٨] .

(٣) سورة الكهف [١٠٥] .

(٤) سورة هود [١٥ـ١٦] .

(٥) سورة الأنعام [٤٤ـ٤٥] .

فليس النجاح - فى الدنيا - بهذه الأسباب حتمية لابد أن تتحقق بالجهد البشرى! إنما هو أمر قدره الله لحكمة يريدها، وإذا شاء سبحانه ألا يقع النجاح فإنه لا يقع، ولو اتخذت الأسباب. وما أمر فرعون بمجهول فى التاريخ البعيد، وما أمر هتلر بمجهول فى التاريخ القريب!! كل منهما اتخذ من الأسباب ما يفوق التصور، وكل منهما باء بالفشل الذريع، فغرق أحدهما فى اليم، وانتحر الآخر مغلوبا على أمره وهو على قيد خطوة من الوصول!

***

من جهة أخرى فإن مجرد النجاح فى «مادة الرسوب» لا يضمن النجاح فى الحياة الدنيا إذا لم يحصّل الإنسان درجات النجاح فى بقية المواد! وهى تكليف ربانى، يعتبر «الإنسان المؤمن» مقصرا إذا لم يقم به، ويعتبر عدم القيام به نقصا فى إيمانه فى ميزان الله، ويعاقب الله الإنسان إذا لم يقم به بشتى أنواع العقاب.

خذ مثالا لذلك هذا التكليف الربانى للأمة المسلمة:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾(1).

كم يشمل هذا التكليف - المفرد فى ظاهره - من التكاليف المتضمنة فى أطوائه؟

هل يمكن إعداد القوة بغير جهد يبذل فى صنع السلاح والتدريب عليه؟

وهل يمكن صنع السلاح بغير علم وعمل؟ علم بالفيزياء والكيمياء وفنون الصناعة المختلفة (التكنولوچيا) وعمل فى إقامة المصانع، وإعداد المهندسين الذين يقومون بإنشائها وتركيب الآلات فيها وصيانتها والإشراف على الإنتاج فيها، ومتابعة ما يجد فى العالم من تقنيات (وخاصة عند العدو) والمحاولة الدائمة للابتكار والتفوق؟

وهل يمكن التدريب بغير إعداد مدربين متمكنين من العلم وفى الوقت ذاته يملكون

(1) سورة الأنفال [٦٠].

الصدق والإخلاص اللازمين، أى من الذين تربوا تربية روحية جهادية على يد مربين نذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله.

وهل يمكن إنتاج السلاح والتدريب عليه (وهو معنى إعداد العدة) بغير مال وفير ينفق فى هذا الشأن (وهو ما أشارت إليه الآية إشارة واضحة فى قوله تعالى: ﴿ وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾)؟

وهل يمكن توفير المال بالقدر المطلوب ما لم تكن الأمة - فى مجموعها - عاملة مجتهدة منتجة، وفى الوقت ذاته مقتصدة غير مسرفة، أى أنها تنتج كثيرا وتستهلك قليلا، لكى يتوفر الفائض الذى ينفق فى إعداد العدة؟.

وهكذا نرى أن هذا التكليف الربانى - المفرد فى ظاهره - قد حوى من التكاليف ما يشكل منهجا كاملا لحياة أمة بأكملها يشمل كل فرد فيها، إما بفرض عين أو فرض كفاية، ويشمل مساحة واسعة من العلم والعمل، وتأثم الأمة فى مجموعها إن لم يقم القادرون من أفرادها بأداء ما يجب عليهم أداؤه، وتعاقب الأمة - فى مجموعها - فى الحياة الدنيا بغلبة أعدائها عليها، وفى الآخرة ينال كلٌّ نصيبه من الحساب بحسب موقعه وقدرته: أولياء الأمور أولا ثم عامة الناس..

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[1].

إن المعايير الربانية جادة كل الجد، محكمة، دقيقة، حاسمة. إنها ليست شيئا هلاميا لا قوام له، ولا شيئا رجراجا لا تثبت له صورة محددة، ولا هى مجرد شعارات ترفع، ولا أمانى يصوغها الخيال كما يتصور الجاهليون عما يسمونه «المعايير الدينية!» ولا هى كذلك تجامل الناس لمجرد قولهم - أو ظنهم - أنهم مؤمنون صادقو الإيمان ما لم يحققوا تكاليف الإيمان التى فرضها الله عليهم. والذين يظنون - من الجاهليين - أنهم هم البارعون، وهم الواقعيون، وهم العمليون، لأنهم يحددون أهدافهم تحديدا واضحا، ويتخذون الأسباب الواقعية العملية التى تحقق أهدافهم بعيدا عن «مثاليات» الدين، هؤلاء لم يتعرفوا على حقيقة المعايير الربانية، ولم يدرسوا السنن الربانية دراسة

(١) سورة الأنفال [٢٥].

«علمية» واعية، ليعرفوا أنها لا تغفل اتخاذ الأسباب، ولا تكل الناس إلى المشاعر والوجدانات، والأماني الفارغات، إنما تتطلب منهم جهدا حقيقيا في عالم الواقع . .
غير أنها تفترق عن معايير الجاهليين في أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : هو تحديد غاية الوجود الإنساني، التي يتخذ الإنسان الأسباب لتحقيقها، ومن ثم الالتزام بالأسباب التي تتواءم مع هذه الغاية ولا تصادمها .

فالنجاح - الأرضي - بالغش والكذب والخديعة والنفاق والمداهنة - وهو ما تدعوا إليه الميكيافيللية صراحة وتطبقه بلا تحرج في معظم معاملاتها - لا يعتبر بالمعايير الربانية نجاحا يتفق مع غاية الوجود الإنساني الذي رفعه الله وكرّمه :

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾(1) .

وإن من التكريم أن تكون وسائل الإنسان في تحقيق ذاته وتحقيق غاية وجوده غير وسائل الحيوان التي يستخدمها في صراع البقاء، وفي الاستمتاع . وحين يطبق البشر في حياتهم قانون الغاب، و «ينجحون» على أساسه في تحقيق ذواتهم، أو «يستمتعون» على طريقة الحيوان، ويتجاوزون الحد في المتاع الحسي، فما الفرق إذًا بينهم وبين الوحوش الضارية، أو بينهم وبين السائمة، وأين منهم شرف الانتماء إلى آدم الذي أسجد الله له الملائكة :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس..﴾(2) .

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام..﴾(3) .

لقد خلق الله الإنسان لأهداف أخرى غير التي خلق الحيوان من أجلها . ولم يكن خلقه مجرد إضافة حيوان جديد إلى قائمة الحيوان، إنما كان إيجاد جنس آخر من الخلق، خلقه الله بقدرته، ليعبد الله على وعي، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج

---

(1) سورة الإسراء [٧٠] .
(2) سورة البقرة [٣٤] .
(3) سورة محمد [١٢] .

الربانى. ومن أجل هذه الغاية وهب له ما وهب من المزايا، وأنزل الكتب لهدايته على أيدى الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم. وكان من أهداف إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط :

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1] .

فأنّى يتحقق القسط بين الناس حين يطبقون فى حياتهم قانون الغاب الذى وضع للحيوان؟!

وليس القسط مجرد شعارات، ولا «مثاليات» غير قابلة للتطبيق، يتجافاها «الواقعيون» من الجاهليين ليصلوا إلى «النجاح»! إنما هو واقع قابل للتطبيق، وطبقته الأمة المسلمة عدة قرون فى واقع الأرض، على الرغم من كل ما أصابها من انحراف فى أثناء مسيرتها التاريخية، وكانت «ناجحة» بكل المقاييس، وفى جميع الميادين، ولكن على المستوى اللائق بالإنسان، سواء فى معاملة «الآخر» الذى لا يؤمن بالإسلام ومبادئه[2]، أو في نظافة المجتمع من الفاحشة، أو فى الخدمات الإنسانية التى تقدم للناس، أو فى التعاون على البر والتقوى، أو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

إن التمكن فى الأرض ـ على هذا المستوى ـ أمر مطلوب، ومنّة يمن الله بها على المؤمنين حين يتبعون منهجه :

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾[3] .

وهو يحقق للناس كل ما يصبون إليه من «النجاح» فى واقع الأرض، ولكن فى طهارة من الدنس، وترفع عن مستوى الحيوان. .

---

(١) سورة الحديد [٢٥].

(٢) يشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغير المسلمين فى البلاد المفتوحة كانت مثالا رائعا من التسامح لا مثيل له فى التاريخ، ويتضح مدى نبله بالمقارنة مع وضع الأقليات الإسلامية التى تقع تحت سيطرة اليهود والنصارى والمشركين عامة.

(٣) سورة النور [٥٥].

أما الأمر الثانى الذى تفترق فيه المعايير الربانية عن المعايير الجاهلية، فهو مدّ الوعى بالوجود الإنسانى إلى ما وراء الحياة الدنيا القصيرة الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية، لا لإيجاد معيارين مختلفين يتردد الإنسان بينهما، مرة هنا ومرة هناك، ولكن لتثبيت المعيار الأول وتمتينه وتمكينه، وجعله أكثر فاعلية فى حياة الإنسان. فالمعيار الأول، الخاص بالنجاح والتمكين في الحياة الدنيا بمقتضى المنهج الربانى، هو ذاته الذى يوصل الناس إلى الآخرة سالمين غانمين مستحقين لرضوان الله. ولا يحتاج الأمر إلى إضافة شىء خاص - لا تصلح به الحياة الدنيا - ولا إلى حذف شىء معين مما تصلح به الحياة الدنيا حسب المنهج الربانى. فحسب الإنسان أن ينشط فى الدنيا بعلمه وعمله، ومجاله الفردى ومجاله الأسرى ومجاله الاجتماعى ومجاله البشرى ملتزما بما أنزل الله، متوجها بعمله ومشاعره إلى الله، ليستحق عند الله نعيم الآخرة. فإن تكن إضافةٌ بالتطوع النبيل بما لم يفرضه الله فرضا، أو الزهد النبيل فى شىء لم يفرض الله الزهد فيه، فهذا رفع للدرجات عند الله، ولكنه ليس شرطا للأمن والكرامة يوم القيامة.

وإن الصورة المريضة التى تعيشها الأمة اليوم، ويتخذها الجاهليون المعاصرون حجة لنبذ المعايير الربانية واتخاذ معايير الجاهلية الأوربية، ليست من الإسلام، ولا تحسب على الإسلام، ولا يحتج بها على الإسلام. إنما هي انحراف تسأل عنه الأمة فى الحياة الدنيا ويوم تقوم بين يدى مولاها:

﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[1].

إنما الصورة السليمة التى عاشتها الأمة بالإسلام قرونا متوالية هى المرجع، وهى المحك لواقعية المعايير الربانية، وأنها ليست مُثُلاً معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق، كما يزعم الذين انحطت عزائمهم عن الرفعة التى أرادها الله للإنسان، فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وأبوا الاحتكام إلى ما أنزل الله، ثم زعموا أنهم هم الفائزون!

﴿لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف [٤٤].
(٢) سورة النحل [١٠٩].

على أن الخسارة ليست واقعة فى الدار الآخرة وحدها! فالوضع المضطرب الذى تعيشه البشرية اليوم فى مختلف أرجاء الأرض، هو شهادة الواقع على مدى صلاحية المعايير الجاهلية المجافية للمنهج الربانى لقيادة البشرية إلى النجاح الحقيقى، الذى يستمتع فيه الإنسان بالحياة. وانظر فقط إلى نسبة الأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة.. والفزع الدائم من الأزمات، سواء السياسية أو الحربية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.. واسأل نفسك هل أدى التقدم العلمى والتكنولوچى وظيفته التى كان قمينا أن يقوم بها فى ظل المنهج الربانى، يوم يقوم الناس بالقسط؟!

﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾(1).

***

هذا التصور الإسلامى للإنسان، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قد برئ من الاختلالات الرئيسية الثلاثة التى وقع فيها التصور الغربى. فلا هو يتعامل مع الإنسان على أنه حيوان متطور، ولا على أنه إله، ولا على أنه يعيش حياته الدنيا منقطعة عن الآخرة.

والعلوم الاجتماعية التى تدرس أحوال الإنسان مستندة إلى هذا التصور ومستمدَّة منه، لابد أن تختلف اختلافا جذريا فى المنطلق وفى الغاية، عن العلوم التى تستمد من التصور الغربى، ولو التقت معها فى بعض الجزئيات، أو فى كثير من الجزئيات. فليست الجزئية هى التى تحدد الصورة النهائية، إنما الصورة الشاملة هى التى تحدد مكان الجزئية من الصورة، ودلالتها فى الكل المتكامل الذى تمثله الصورة.

وفى الفصل التالى نعرض خطوطا عريضة لما نتصور أن تكون عليه الدراسات الاجتماعية المستمدة من التصور الإسلامى للإنسان.

---

(1) سورة طه [124].

خطوط عريضة فى التأصيل الإسلامى

قلت فى نهاية الفصل السابق إن الاستمداد من التصور الإسلامى للإنسان، سيصل بنا فى العلوم الاجتماعية إلى نتائج تختلف فى المنطلق وفى الغاية عن النتائج التى يتوصل إليها «العلماء» فى الغرب، وإن التقت معهم فى بعض التفصيلات أو فى كثير من التفصيلات.

ونقول هنا إنه على الرغم من أن هذا الاختلاف سيقع تلقائيا، نتيجة اختلاف التعامل مع الحيوان المتأله الذى يعيش لدنياه وحدها منقطعة عن الآخرة، عن التعامل مع الإنسان العابد لله، الذى يعلم أنه عبدٌ لله، ولكنه مكرم بعبوديته لأن الخالق الكريم كرمه، والذى يعيش لدنياه وآخرته فى آن واحد.. على الرغم من ذلك فإن الكاتب المسلم الذى يتصدى للكتابة فى العلوم الاجتماعية من منطلق إسلامى، يجب أن يوجه باله إلى عدة أمور، تعاونه فى البحث، وتجنبه منزلقات كثيرة يقع فيها «علماء» الغرب..

الأمر الأول أن من بدهيات البحث العلمى أن تكون «العينة» التى يُجْرَى عليها البحث ممثلة تمثيلا صادقا للنوع أو الشىء المراد دراسته وتقنينه ومعرفة خواصه وترتيب النتائج عليه.

فإذا أردنا - مثلا - أن نختبر خواص الحديد، فلا يكفى - للاطمئنان إلى النتائج اطمئنانا علميا - أن نأخذ عينة من مكان معين، ونجرى عليها ما نشاء من ا لتجارب، ثم نقول: ثبت لدينا أن خواص الحديد هى كذا وكذا.

ولكن لابد من أخذ عينات من أماكن شتى، وإجراء التجارب على كل منها، فإذا ظهر لنا بعد تكرار التجربة على العينات المختلفة أنها كلها تعطى نتيجة واحدة، أو نتائج متشابهة بحيث لا يؤبه للخلاف الطفيف فيها، قلنا مطمئنين: إن خواص الحديد هى كذا وكذا، وأشرنا إلى الفروق الطفيفة إن وجدت مثل هذه الفروق.

هذا مع العلم بأن التعامل مع المادة أكثر ضمانا فى الحصول على نتائج قطعية ونهائية، لأن المادة - فى الغالب - تعطى نتائج متماثلة فى الظروف المتماثلة. وإن كان العلم الحديث - المتقدم - قد نفى الحتمية القطعية حتى فى عالم المادة، واستبدل بها نظرية الاحتمالات التى تقول إنه لا شيء قطعى فى الكون المادى، إنما هى احتمالات، الاحتمال «أ» أكبر من الاحتمال «ب»، والاحتمال «ب» أكبر من الاحتمال «جـ». . !

فكيف مع الإنسان. . وكيف مع النفس البشرية؟!

إننا نتعرض لخطأ علمى فادح حين نأخذ العينة البشرية التى ندرسها من جيل معين من أجيال البشرية، ثم نستخرج منها نتائج عامة، ولو قمنا بإجراء التجارب على كل أفراد ذلك الجيل، وهذا مستحيل بالطبع! . . لأن الجيل الذى نختاره للدراسة قد لا يكون ممثلا للنوع البشرى فى جميع أحواله، وقد تكون هناك أجيال أخرى منه ذات خصائص مختلفة.

فكيف إذا كانت دراستنا لا تشمل كل أفراد الجيل، وكان الجيل لا يشمل بالضرورة كل خصائص النوع البشرى. . كم تكون دراستنا بعيدة عن الواقع، وبعيدة عن «الأصول العلمية» التى يجب توافرها فى البحث؟

وقد يبدو ما قلناه بديهية مسلمة لا يغفل عنها «عالم»!

ولكن انظر إلى دور كايم - مثلا - وهو فى حس كثير من دارسى علم الاجتماع عمدة لا يراجع ولايناقش فيما يقول! . . انظر إليه يأخذ العينة التى يبنى عليها استنتاجاته من جيله المنحرف - الذى عملت عوامل كثيرة على إشاعة الانحراف فى كيانه - فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة!

فعلى أى شيء بنى تلك النتيجة التى أعطاها صفة القطع؟!

لقد بناها على جيل معين من أجيال البشرية فرط فى دينه، ولم يعد يلتزم بالزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين، ولم يعد يهتم بالأسرة كيانًا يجمع الأم والأب والأولاد. .

فهل يمكن أن توصف هذه الاستنتاجات بأنها «علمية» وأنها سليمة؟

وهل يلغى جيلٌ دلالة أجيال لا يحصيها إلا الله وحده، ولكن لدينا من الآثار المكتوبة والمنقوشة ما يغطى منها سبعة آلاف من السنين أو خمسة آلاف فى أقل تقدير؟!

ولا ندخل الآن فى نية الكاتب من إصدار هذه «الفتوى» العلمية المزيفة، وماذا كان

يريد من وراء نفى الثبات عن الدين والزواج والأسرة، واعتبارها أشياء ليست من الفطرة (أى قابلة للإلغاء فى أى وقت) إنما نسأل من الوجهة العلمية البحتة، هل هذا المنهج: وهو أخذ العينة من جيل معين من أجيال البشرية ثم تعميم النتائج المستمدة منها على النوع البشرى كله.. هل هو منهج «علمى» سليم؟!

وهل معنى هذا - من جهة أخرى - أن نلغى دلالة هذا الجيل الذى وقع فيه التفريط فى الدين، وعدم التزام الزواج إطاراً للعلاقة بين الجنسين، وعدم التزام الأسرة كيانا بجمع الآباء والأبناء؟

إننا إذا أغفلنا هذا الجيل، وألغينا دلالته، لا نكون واقعيين من ناحية، ولا تكون النتائج التى نصل إليها صحيحة من الوجهة العلمية، ولا متصفة بالعموم والشمول الذى ندعيه فى البحث العلمى.

إنما يكون المسلك العلمى الصحيح أن نرصد الظاهرة خلال الأجيال، فى آلاف السنين التى نملك عنها بيانا نطمئن إلى صحته، ثم نقرر **شذوذ هذا الجيل** عن سلسلة الأجيال قبله، ثم نحاول أن نرصد أسباب هذا الشذوذ فى واقعنا المعاصر، لنعلم إن كان شيئا عارضا قابلا للزوال، أم إنه تحول فى الفطرة البشرية ذاتها خرج بها عن خطها إلى خط جديد..

وإذا فعلنا ذلك فسيتضح لنا أن «الفتوى» التى أصدرها دور كايم، ونفى فيها أن يكون الدين والزواج والأسرة أشياء من الفطرة، هى - على أقل تقدير - فتوى ينقصها الدليل العلمى[1]!

* * *

المزلق الثانى الذى يقع فيه بعض المؤلفين فى العلوم الاجتماعية - والذى يجب أن يتجنبه الكاتب المسلم - هو الدعوى التى تقول إن البحث العلمى يجب أن يكون «واقعيا» لا يتغلق «بالمثاليات»، أى أنه يجب أن يتعامل مع ما هو كائن لا مع ما ينبغى أن يكون!

إن هذا المنطق يصح فى حالة واحدة، هى أن يكون «ما يجب أن يكون» غير قابل - فى ذاته - للتطبيق، لمخالفته للفطرة البشرية، أو لكونه خارج حدود قدرة الإنسان.

(١) سنتكلم عن هذه القضية بشىء من التفصيل فيما بعد.

فأما إن كان مما يقدر الناس عليه، ومما طبق بالفعل فى فترة معقولة من الزمن، فلا تقبل دعوى «الواقعية» فى عدم التعامل معه، ولو انحرف الناس عنه، بل ولو كان أكثر الناس منحرفين عنه. فالقضية هنا لا تتعلق بالواقعية أو عدمها، إنما تتعلق بالمرجعية: هل هى للإنسان أم هى لخالق الإنسان!

وهذا المزلق بالذات هو من أشد المزالق التى يقع فيها الغرب فى دراساته الاجتماعية، منذ خروجه من «الربانية» الكنسية إلى «الإنسانية» المتمردة على سلطان الله. فإذ اعتبر الإنسان هو المرجع أصبح الهبوط والانحراف أصلا لأنه هو الغالب على الناس فى جاهليتهم، وأصبح التسامى والارتفاع شذوذا لا يؤبه به لقلته وقلة تأثيره فى المجموع.

ولكن المسلم مرجعيته هى ما جاء من عند الله، وليس «واقع» الناس.

وحين يضع الله حدا من الحدود ويجعله ملزما للناس، فهو بالنسبة للمسلم ملزم ولو عصاه الناس أجمعون!

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾(١).

وهو ملزم باعتبارين اثنين فى آن واحد.

الاعتبار الأول أنه منزل من عند الله الخالق، الذى له الأمر بمقتضى كونه هو الخالق سبحانه:

﴿ألا له الخلق والأمر﴾(٢).

والاعتبار الثانى أنه منزل من عند الله العليم الحكيم، الذى يعلم حقيقة الإنسان الذى خلقه، وحقيقة قدراته، فيكلفه ما يعلم سبحانه أن فيه صلاحه، وما يعلم أنه فى مقدوره:

﴿.. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(٣).

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾(٤).

---

(١) سورة النساء [٦٤].
(٢) سورة الأعراف [٥٤].
(٣) سورة المائدة [١٥-١٦].
(٤) سورة البقرة [٢٨٦].

ومن ثم فكل التكاليف التى كلف الله بها الإنسان ملزمة له بهذه الاعتبارات، وهى الأصل الذى يجب أن يكون عليه الإنسان. وحين ينحرف عنه يكون انحرافه فى خانة «الخطأ» لا فى خانة «الواقع»، ولو وقع فى الخطأ كل الناس! . . فإن كثرة الخطأ وعمومه لا تنفى عنه صفته، ولا تعطيه شرعية الوجود.

ولكن حين يكون هذا الواجب الملزم قد طبق بالفعل لا فى أفراد متناثرين بل فى أجيال، ولقرون عدة متوالية - كما وقع التطبيق على يد الأمة الإسلامية فى واقعها التاريخى على الرغم من كل انحرافاتها - فإن الواجب عندئذ يكون أشد إلزاما، وأوجب فى التنفيذ، وأوجب فى اعتباره هو الأصل، وإن عصاه من عصاه!

يقول تعالى فى كتابه المنزل:

﴿والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾[1].

فالإيمان بالله واجب ملزم فى ذاته - بحجيته الخاصة - ولكن استجابة المستجيبين له تجعله أشد إلزاما، وتجعل المخالفين أعظم جرمًا عند ربهم، وأشد استحقاقا للغضب وللعذاب الشديد.

كذلك فإن استجابة أجيال من الأمة الإسلامية لما «يجب أن يكون»، على درجات مختلفة، يجعله أشد إلزاما للبشرية كلها، ويجعل المخالفين، سواء من الأمة الإسلامية ذاتها أو من غيرها من الأمم، هم المخطئين، أيا كانت نسبتهم، وأيا كانت نسبة بعدهم عما يجب أن يكون.

والواقعية الإسلامية لن تزيف الواقع، ولن تعطيه وصفا ليس له. ولكن الفرق بينها وبين واقعية الغرب أنها تتسع للواقع كله، بشقيه، الواقع الذى يجب أن يكون عليه الناس، والواقع الذى عليه الناس بالفعل فى أى جيل من أجيالهم، مقيسا بما يجب أن يكون، أى موضوعة مخالفاته فى خانة الخطأ والانحراف.

وقد يظن بعض الناس أن هذا افتعال وتمحل لا موجب له! فندلهم - من الواقع - على موجبه!

تناقش البرلمان البلجيكى - الموقر[2] - ذات يوم فى قضية الصور العارية التى تصور أوضاعًا مخلة بالأدب والحياء. فقال أعضاء - محترمون[3] - فلنكن واقعيين! . . إن

(١) سورة الشورى [١٦].

(٢) كل البرلمانات موقرة بالضرورة.

(٣) وكل الأعضاء محترمون بالضرورة كذلك!

هذه الصور موجودة بالفعل، وتملأ السوق، وإن كانت تتداول خلسة. فما قيمة إصرارنا على منعها، وتجاهل الأمر الواقع؟!

وأخذ المجلس الموقر بوجهة نظر النواب المحترمين، فأصدر قرارا بإباحة تداول الصور التى كانت ممنوعة بحكم القانون. وفى اليوم التالى - كما قالت الصحف البلجيكية ذاتها، والصحف العالمية كذلك - انتقلت الصور من خفايا الأزقة كما كانت من قبل إلى صدر المحلات الواقعة فى الشوارع الرئيسية.. فزاد الإقبال عليها وزادت نسبة انتشارها أضعافا مضاعفة.

ومرة أخرى وقع ذلك المجلس الموقر نفسه فى تلك الواقعية الحمقاء، فقال قائل فيه: فلنكن واقعيين!.. إن المخدرات ممنوعة بموجب القانون، ولكنها موجودة ومتداولة رغم قرار المنع، فما قيمة القرار؟!.. وتداول المجلس الموقر فى الأمر فقرر رفع الحظر عن تعاطى المخدرات!.. ثم قالت الصحف إن الأطفال فى الحافلات العامة صاروا يحقن بعضهم بعضا وهم راكبون فى الحافلة!

فأى حماقة ترتكبها تلك الواقعية الحمقاء؟!

إن قرار المنع هو لون من النهى عن المنكر، ومهما يكن ضعفه، وضعف فاعليته، فهو على أية حال قيد على الانحراف، فإذا رفعت القيد - بحجة الواقعية - فإن الأمر لا يقف عن الحد الذى كان عليه حين رفعت القيد، وإنما تجربة الواقع التاريخى كله تقول إنه يزداد سوءا وضراوة بحكم ثقلة الشهوات فى النفوس، وجذبها الدائم للناس إلى أسفل. ولذلك أعطى الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اعتبارا عظيما حتى جعل خيرية هذه الأمة متعلقة به (مع الإيمان بالله)، وجعل اللعنة على الأمة التى كفت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(1).

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾(2).

وحين يؤلف مؤلف كتابا أو يبحث بحثا ويسعى إلى نشره فإنه يقصد من وراء ذلك إلى قصد معين، ودع عنك أكذوبة «الفن للفن» و«العلم للعلم» فهى لا تصدق بالنسبة

---

(1) سورة آل عمران [110].

(2) سورة المائدة [78 - 79].

لعملية النشر! . . فإنما ينشر المؤلف كتابه لينشر فكره بين الناس. أى أنه داعية يدعو إلى فكر معين. . فما موقف المسلم من هذه القضية؟! . . إلى أى شيء يدعو الناس؟!

حين يعطى الواقع المنحرف شرعية الوجود بحجة أنه واقع بالفعل، فإنه فى واقع الأمر يدعو إلى مزيد من الانحراف، ويؤدى إلى مزيد من الانحراف!

وعلى العكس من ذلك فإنه حين يجعل المرجعية لما أنزل الله، ويزن الأمور بميزان الله، فيضع الانحراف فى خانة الانحراف، ويبين الأصل الذى يجب أن يكون، فهو داعية يدعو إلى الصعود، ولن تضيع الدعوة فى الأمة مادام فيها دعاة مخلصون، يبتغون بدعوتهم وجه الله. ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. فكيف وأنت تدعو أمة بأكملها فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها؟!

وليس مقتضى ذلك - قط - أن تتحول الدراسات الاجتماعية إلى مواعظ! . . ولا يتصور الأمر على هذه الصورة إلا جاهل أو معاند. إنما هى الدراسة «العلمية» بكل موضوعية العلم، «الواقعية» بكل صرامة الواقع، ولكنها الواقعية الكبيرة التى تتسع لواقع التاريخ، وواقع الأجيال، وتركز على كل صعود تصعده البشرية، ولا تركز فقط على لحظات الهبوط ولحظات الانحراف!

وفيما يلى من الصفحات نعرض خطوطا عريضة لما يمكن أن يكون «ورقة عمل» للتأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية.

(١)

فى علم الاجتماع

علم الاجتماع الإسلامى ينبغى أن يركز على الموضوعات الآتية :

١ - السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية ، وخاصة سنن التمكين فى الأرض ، وسنن التدمير .

٢ - الثابت والمتغير فى حياة البشرية .

٣ - الدين والفطرة .

٤ - مكانة الأسرة فى البنيان الاجتماعى .

٥ - العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع .

* * *

أولا: السنن الربانية

تجرى الحياة البشرية بمقتضى سنن أجراها الله فى خلقه ، وثبتها سبحانه وتعالى لتنتظم الحياة البشرية على نسق واضح يعرف الإنسان خطواته ومبتدأه ومنتهاه ، لكى يسير على هدى ولا يتخبط فى سيره . ثم عرّفنا بهذه السنن فى كتابه المنزل ، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكى نكون على بينة من الأمر فى تصرفاتنا ، ونقدر مسئوليتنا فى كل تصرف ، فلا نكون فى تصرفاتنا عفويين ، ولا فوضويين ، ولا قصار النظر[١] .

---

(١) مما يلاحظ أن هذه الأمراض الثلاثة : الفوضوية التى تكره النظام ، والعفوية التى تكره التخطيط ، وقصر النظر ، الذى يصاحبه ويتبعه قصر النفس ، والاشتعال السريع والانطفاء السريع ، هى من أشد الأمراض التى أصابت الأمة حين فقدت وعيها الحقيقى بدينها ، والتمسك به على بصيرة ، ومن أشد ما ينبغى الالتفات إليه فى حركة التصحيح .

ولأن السنن الربانية كثيرا ما تكون أطول مدى فى تحققها من حياة الفرد القصيرة المحدودة - وخاصة ما يتعلق منها بالجماعات البشرية - فقد وجهنا الله سبحانه وتعالى أن نتدبر التاريخ، ونستخرج عبرته، إذ التاريخ هو المجال الواقعى الذى تحققت فيه السنن الربانية من قبل، وتتحقق من بعد - لثبوتها وحتميتها - فما لا يدرك الإنسان تحققه فى فرصة عمره المحدود، يستطيع أن يراه متحققا فى التاريخ، فيستيقن من صدق السنن، وأنها لا تتخلف ولا تنحرف عن مسارها، ولا تجامل أحداً من الخلق.

وحول ثبات السنن واستمراريتها وعدم تخلفها وعدم تبدلها تثور عدة قضايا يدخل بحثها فى مجالات علم الاجتماع الإسلامى، بعضها يتصل بالعقيدة، وبعضها يتصل بوضع الإنسان فى الحياة.

فمما يتصل بالعقيدة أنه لا قيد على مشيئة الله سبحانه وتعالى، فمشيئته حرة طليقة يفعل ما يشاء، وهو فعال لما يريد. وتثبيت السنن فى جريانها هو من فعله سبحانه وتعالى ومن مشيئته، دون حتمية عليه جل وعلا، فإنه إن شاء أن يغيرها فليس فى الوجود كله من يقف أو ما يقف أمام مشيئته. ولكنه من رحمته بالإنسان ثبت تلك السنن، ليعرف الإنسان طريقه على هداها، ويرسم لنفسه خط سيره على هدى وبصيرة.

ثم إن لله خوارق تخرق السنن الجارية - سواء فى الكون المادى أو فى الحياة البشرية[1] - يجريها الله متى شاء لمن شاء، ولا يسأل سبحانه عما يفعل فى الكون الذى خلقه بقدرته، ويجريه بقدرته. ولكنا - نحن البشر - مأمورون فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن نتبع السنن الجارية، وألا نتعلق بالخوارق، التى لا نملك أمرها، ولا نستطيع إجراءها، بينما السنن الجارية معلومة الأول والآخر، فالاهتداء بها هو الأليق بالبشر، وهو سبيل النجاح.

وأما ما يتصل بوضع الإنسان فى الحياة، فإن حتمية السنن الربانية تختلف اختلافا جذريا عن الحتميات الزائفة التى أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة، سواء الحتمية المادية أو الحتمية التاريخية التى اصطنعها ماركس، أو الحتمية النفسية التى اصطنعها فرويد، أو الحتمية الاجتماعية التى اصطنعها دور كايم، والتى تلغى كلها إيجابية الإنسان إزاء الضغوط الواقعة عليه من خارج كيانه أو من داخل كيانه، وتجعله عبداً ذليلا خاضعا

(١) هنا تفترق الرؤية الإسلامية عن رؤية نيوتن ومن سار على نهجه الخاطئ، الذين قالوا بحتمية قوانين الطبيعة ونفوا المعجزات!

للأوضاع المادية ، أو لضغط الشهوات ، أو لضغط المجتمع ، فى الوقت الذى يرفض فيه أن يكون عبداً لله !

إن هذه الحتميات الزائفة تلغى فى الحقيقة «إنسانية الإنسان» المتمثلة فى الوعى والإرادة والحرية التى بثتها نفخة الروح فى قبضة الطين ، وترده قبضة طين خالصة ، أو على الأكثر حيوانا قريب الصلة بقبضة الطين .

ماركس يقول صراحة إن وجود الناس (يقصد وجودهم فى طور مادى معين) هو الذى يعين شعورهم ، وليس شعورهم هو الذى يعين وجودهم ، ومن شذ - بشعوره أو سلوكه - سحقته عجلة التطور الحتمى !

وفرويد يقول صراحة إن مخزون اللاشعور - الجنسى فى طبيعته - هو الذى يشكل للإنسان سلوكه ، ولا معدى للإنسان عن طاعته ، فإن خرج عن طاعته أصابته العقد والاضطرابات النفسية والعصبية !

ودور كايم يقول صراحة إن «العقل الجمعى» هو الذى يشكل للأفراد عقائدهم وأفكارهم وأنماط سلوكهم ، من خارج نفوسهم ، ودون إرادة منهم ، ولا يملك الفرد مخالفته ، ولا حيلة له إلا اتباعه !

وكلها - كما ترى - حتميات تلغى الوجود الحقيقى «للإنسان» .

وعالم الاجتماع المسلم عليه أن ينبه إلى زيف هذه الحتميات كلها ، ويبين فى الوقت ذاته معنى حتمية السنن الربانية ، والفرق الهائل بينها وبين الحتميات الزائفة .

إن السنن الربانية لا تفرض على الإنسان سلوكا بعينه . إنما تقول له إنه إذا اختار كذا فالنتيجة الحتمية لهذا الاختيار هى كذا . فهى تدع له حرية الاختيار ، ولكنها ترتب نتيجة معينة ، ثابتة لا تتغير ، على الاختيار الحر الذى يختاره . وهى من ثم تكرّم الإنسان إذ تدع له حرية الاختيار ، وتتعامل فى الوقت ذاته مع العنصر «الإنسانى» فيه - وهو الوعى والإرادة والحرية - فتقول له إنه مسئول عن عمله ، وعن النتائج التى تترتب على عمله ، لأنه اختاره بوعى وإرادة وحرية :

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾(1) .

---

(1) سورة الشمس [7 ـ 10] .

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[1] .

وفرق كبير بين حتمية السنن الربانية - على هذه الصورة المؤكِّدة لإنسانية الإنسان وإيجابيته - وبين الحتميات الزائفة التى أتت بها الجاهلية المعاصرة خاصة على أيدى أكابر «علمائها» !

وإن الإسلام - بواقعه التاريخى - لهو الشاهد على كذب تلك الحتميات الزائفة كلها ، وصدق السنن الربانية ، وتكريمها للإنسان ، فليس فى الإسلام شىء واحد يمكن أن ينشأ من الحتمية التاريخية ، أو الحتمية النفسية ، أو الحتمية الاجتماعية ، التى زعمها ماركس وفرويد ودوركايم ، إنما هو واقع قوم اختاروا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، فغيروا ما بأنفسهم ، فغيروا - بحول الله ، وبمقتضى سنن الله - كل الواقع المادى والاقتصادى والنفسى والاجتماعى الذى كان قائما فى الأرض واستبدلوا به غيره !

شعور الناس هو الذى حدد وجودهم على عكس ما قال ماركس .

ارتفاع مشاعر الناس عن الحيوانية الغريزية هو الذى جعل منهم أكبر طاقة بانية معمرة فى التاريخ ، على عكس ما قال فرويد .

إيمانهم - بإرادتهم ومن داخل نفوسهم - هو الذى أزاح كل الأعراف الاجتماعية التى كانت قائمة فى وقتهم ، وأنشأ بدلا منها أعرافا جديدة قويمة ، على عكس ما قال دوركايم .

وثبتت سنة الله ، ووعده ووعيده ، فمكن الله للمؤمنين ، ودمر على الكافرين :

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾[2] .

﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾[3] .

* * *

---

(١) سورة الزلزلة [٧ - ٨].
(٢) سورة النور [٥٥].
(٣) سورة محمد [١٠].

من بين السنن التى يجب التركيز عليها أنه لا تحصيل بغير جهد يبذل .

﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾[1] .

﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾[2] .

وواضح فى الآيتين أن الحديث والخطاب هو «للإنسان» كله ، مؤمنه وكافره . فتلك من السنن العامة التى يشترك فيها «الإنسان» كله ، ولا تخص فريقا من الناس دون فريق[3] .

وأهمية التركيز على هذه السنة فى واقعنا المعاصر هى ضرورة تصحيح المفاهيم التى أفسدتها انحرافات الأمة الإسلامية فى مسيرتها التاريخية الطويلة فأبعدتها عن حقيقة الإسلام .

إن الإسلام دعا المؤمنين إلى التوكل على الله ، مع اتخاذ الأسباب :

﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[4] .

والعزيمة ليست مجرد الرغبة ، ولا مجرد النية ، إنما هى إجراء عملى يتم قبله ومعه إعداد العدة :

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾[5] .

ولكن الصوفية المنحرفة - مع الميل البشرى للتفلت من التكاليف - قد حولا التوكل إلى تواكل مريض ، لا يمت بصلة للتوكل الإسلامى الصحيح المطلوب من المؤمنين ، وإن زعم أصحابه أنهم هم أصحاب الصلة الوثيقة بالله !

والتوكيد على هذه السنة التى تقول إنه لابد من بذل الجهد ليتم التحصيل ، ضرورى لمعالجة ما أحدثه التواكل المريض من ضعف وتخاذل وتقاعس فى بنية الأمة .

* * *

من السنن العامة كذلك أن الله يعطى على الجهد - فى الدنيا - للمؤمن والكافر سواء ، على قدر ما يبذلون من الجهد بالطريقة الصحيحة المتسقة مع السنن الكونية .

---

(١) سورة البلد [٤] . (٢) سورة الانشقاق [٦] .

(٣) هناك إلى جانب السنن العامة سنن خاصة بالمؤمنين وحدهم وأخرى للكافرين وحدهم ، سنتكلم عنها فيما بعد .

(٤) سورة آل عمران [١٥٩] . (٥) سورة الأنفال [٦٠] .

﴿كُلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾[1] .

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾[2] .

ولكن النظر فى هذه السنة يستتبع النظر فى سنن أخرى فى ذات الوقت ، فإن السنن الربانية لا تعمل فى حياة الناس فرادى ، ولكنها تعمل مجتمعة ، وإن بدت إحدى السنن فى ملابسة معينة أظهر فاعلية من غيرها ، ولكن الحصيلة النهائية للواقع البشرى هى الحصيلة النهائية للسنن الربانية مجتمعة ومتشابكة .

يترتب على هذه السنة - وهى مدّ المؤمن والكافر كليهما من عطاء الله ، وكون هذا العطاء فى الدنيا مبذولا لمن أراد التحصيل منه ، وبَذَلَ الجهد اللازم له واتخذ الأسباب - يترتب على هذه السنة اعتبار هام بادئ ذى بدء ، هو أن النجاح والتمكين فى الحياة الدنيا ليس فى ذاته مقياسا للصلاحية ولا للخيرية ، مادام يعطى للمؤمن والكافر على السواء !

وهذا مزلق من أشد المزالق التى تقع فيها العلوم الاجتماعية الغربية ، ويقع فيه - بالعدوى - كل من انجرف فى تيار الغزو الفكرى متأثرا بتلك العلوم ، والنظرة الكامنة وراءها ، ومتأثرا فى الوقت ذاته بغلبة الغرب الحالية وانحسار الوجود الإسلامى إلى ما دون الحضيض !

النجاح والتمكين فى الحياة الدنيا دليل مؤكد على شيء واحد - حسب السنة الربانية - هو أن أهله قد عزموا ، وقد أرادوا ، وقد اتخذوا الأسباب التى رأوها موصلة إلى الهدف المطلوب . ولكنه ليس دليلا مؤكدا على أى شيء وراء ذلك !

ليس دليلا على أن أصحابه ذوو منهج «إنسانى» سليم ، ولا ذوو رقىٍّ أخلاقى ولا نفسى ولا حضارى ولا قِيَمىّ . . بعبارة أخرى : لا علاقة له «بالخيرية» .

والأدلة من التاريخ أكثر من أن تحصى !

فقد اكتسح التتار - فى همجيتهم - بقاعا شاسعة من الأرض ، ودكوا حضارات كانت قائمة ، وأزالوا دولا ذات سلطان . . ولم يتهمهم أحد بأنهم كانوا يومئذ على شيء من الخيرية فى أمر من الأمور !

---

(١) سورة الإسراء[٢٠] .

(٢) سورة هود[١٥] .

وقد سادت الإمبراطورية الرومانية الأرض ردحا من الزمن غير قليل، وهى قائمة على العسف والظلم والقهر واستعباد الآخرين واستغلالهم أسوأ استغلال.

و«الحضارة» الغربية الحالية هى وريثة الإمبراطورية الرومانية فى عسفها وظلمها وتجبرها وطغيانها، وإن انخدع عن هذه الحقيقة المنخدعون!

كلا! لا علاقة للتمكين فى الأرض «بالخيرية» بمعناها الإنسانى، القيمى، الأخلاقى، وذلك بصريح الآية التى تقرر أن الله يمد هؤلاء وهؤلاء - أى الخيرين والشريرين - من عطائه فى الحياة الدنيا، وبشهادة التاريخ، التى تشهد «بالنجاح» الأرضى لكثير من الأوغاد!

يقول صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شربة ماء»(١) ولكنها لا تساوى عنده جناح بعوضة! . . ولذلك يتركها لكل من هفت نفسه إلى شىء منها!

إنما الخيرية لها معيار آخر، يقترن - أو لا يقترن - بالتمكين!

والأصل فى السنة الربانية أن الله يمكن للمؤمنين، حين يتخذون الأسباب اتخاذا صحيحا، ويتوكلون على الله حق التوكل، ولا يتواكلون:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض...﴾(٢).

﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾(٣).

ولكن الله - لحكمة عنده - قد يجرى سننا أخرى، لا يكون فيها الخيرون الصالحون ممكنين فى الأرض، بل يكون الممكنون هم الطغاة المتجبرين، الذين يسومون المؤمنين العذاب.

لقد كان سحرة فرعون - بعد إيمانهم - هم الخيرين الصالحين، ولكنهم لم يمكنوا فى الأرض، بل اجتثهم الفرعون الشرير اجتثاثا من الأرض، فقتّلهم ومثل بهم، وبقى هو متمكنا إلى حين.

وكان المؤمنون الذين أحرقوا عن بكرة أبيهم فى الأخدود هم الخيرين الصالحين،

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجة.

(٢) سورة النور [٥٥].

(٣) سورة الأنبياء [١٠٥].

ولكنهم لم يمكنوا فى الأرض وكان الممكنون هم الطغاة الجبارين ﴿الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا﴾[1] .

وكان أصحاب الكهف هم الخيرين الصالحين، ولكنهم لم يمكنوا فى الأرض، وكان الممكنون هم الطغاة الذين اضطهدوهم، والذين ظل الخوف من جبروتهم كامنا فى قلوب أهل الكهف ﴿ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾[2] . إذ قالوا حين قاموا : ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذًا أبدا﴾[3] .

هنا سنة أخرى من سنن الله هى سنة الابتلاء :

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[4] .

وغالبا ما يكون الابتلاء للتمحيص، تمهيدا للتمكين بعد التمحيص .

﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[5] .

ولكن يكون الابتلاء الشديد أحيانا لحكمة أخرى غير التمكين فى الأرض، هى إعطاء النموذج الفذ للتجرد الكامل لله، والاستعلاء بالإيمان على كل قوى الأرض، وكل متاع الحياة الدنيا، ابتغاء الآخرة وحدها، دون أىّ أمل فى أىّ نجاح فى الأرض . . وهو نموذج يربى الله به الأجيال المؤمنة لترتفع وترتفع وترتفع . . وتبلغ الغاية فى الارتفاع .

وكلها سنن، يجرى الله منها ما يشاء حين يشاء :

﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾[6] .

* * *

ولكن حين يقدر الله التمكين للخيرين الصالحين، حين يتخذون الأسباب الصحيحة للتمكين، من العلم والعمل والعزم والمثابرة وعدم الوهن وعدم التخاذل وعدم التقاعس، فإنه يخصهم بسنن خاصة لا ينعم بها على غير المؤمنين، حين يقدر لهم التمكين فى الأرض بما اتخذوا من أسباب .

(١) سورة البروج [١٠] .
(٢) سورة الكهف [٢٥] .
(٣) سورة الكهف [٢٠] .
(٤) سورة العنكبوت [٢ - ٣] .
(٥) سورة آل عمران [١٤١] .
(٦) سورة الرعد [٤١] .

فالكفار - كما قلنا -يمكن الله لهم فى الأرض إذا شاء، حين «يريدون» الحياة الدنيا وزينتها، ويحولون هذه الإرادة إلى جهد يبذلونه فى واقع الحياة، مستغلين فيه ما سخره الله للبشر جميعا من طاقات السموات والأرض:

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾(1).

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد...﴾(2).

﴿.. ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها..﴾(3).

بل قد يزيد سبحانه فيفتح عليهم أبواب كل شيء من التمكين المادى حين يلجون فى الغواية، فييسر لهم القوة السياسية، والقوة الحربية والقوة الاقتصادية، والقوة العلمية، والقوة التقنية..

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء..﴾(4).

ولكن يبقى بابان لا ينفتحان للكفار أبدا، لأن الله وضع مفتاحهما فى يد المؤمنين وحدهم كما أشرنا من قبل، باب البركة وباب الطمأنينة:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾(5).

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(6).

وواقع الغرب اليوم هو الشاهد على تحقق السنن الربانية التى لا تبديل لها ولا تحويل:

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾(7).

فقد وصل الغرب - وأمريكا بصفة خاصة - إلى تحقيق «مجتمع الوفرة society of plenty» الذى كانوا يصبون إليه، ويتخذون إليه الأسباب.. ولكن أين البركة وأين طمأنينة القلوب؟!

سلهم عنها فهم بها خبراء!

---

(1) سورة هود [15].
(2) سورة الإسراء [18].
(3) سورة الشورى [20].
(4) سورة الأنعام [44].
(5) سورة الأعراف [96].
(6) سورة الرعد [28].
(7) سورة فاطر [43].

وذلك فى الحياة الدنيا، أما حساب الآخرة فله شأن آخر، حدث عنه ولا حرج!

* * *

من السنن التى تستحق التركيز من العالم المسلم، ما يختص منها بقيام الدول وزوالها، وقد كان لابن خلدون اهتمام بهذه الظاهرة وأعطاها تفسيره المعروف، الذى أخذه عنه «توينبى» المؤرخ الإنجليزى المعاصر فيما سماه سنة الشيخوخة. ومفادها أن الدول تبدأ صغيرة ثم تكبر، وتكون فى فترة شبابها قوية ذات شكيمة وعزيمة، ثم يدب إليها الوهن فتهرم ثم تموت.

وربما كان ما يقوله ابن خلدون، وينقله عنه «توينبى» حقيقة واقعة، ولكن لا شك أن له أسبابه، مادام الله يقول: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**(١). فالشيخوخة التى تصيب الأمم فتهلكها ليست فى ذاتها هى السنة، كما هى فى حياة الأفراد من البشر:

﴿الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾(٢).

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾(٣).

إنما يحدث الضعف الذى يؤدى إلى الموت فى الأمم حين يغير الناس ما بأنفسهم. فنستطيع أن نقول بصفة عامة إن الدول فى نشأتها تكون محوطة بأعداء يلزمها التغلب عليهم لكى تتمكن فى الأرض، فيبعثها ذلك على شحذ همتها واستجماع قوتها حتى تصمد فى الصراع بينها وبين جيرانها ثم تتمكن من إخضاعهم أو القضاء عليهم. ثم تمر بعد ذلك فترة يكون الناس فيها أقوياء ولكنهم متربصون يقظون لئلا يقوم الأعداء مرة أخرى فيهاجموهم، وتلك هى أقوى الفترات التى تمر بالدولة وأنشطها فى كل اتجاه. ثم يطمئن الناس إلى أن قوتهم أصبحت لا تغالب ولا تغلب، فيبدأ الترف يدب فى أوصالها، نتيجة امتلاكها القوة والثروة وعدم وجود المنازع الذى يؤبه له ويحسب له حساب! والترف هو الحمض الأكال الذى يأكل الأمم والشعوب، لأنه مفسد متلف مفتّر باعث على القعود صارف عن بذل الجهد. وعندئذ يكون الهلاك بقدر من الله، وبسنة من سنن الله!

---

(١) سورة الأنفال [٥٣].
(٢) سورة الروم [٥٤].
(٣) سورة آل عمران [١٨٤].

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[1].

ومهما يكن من الأمر، فالنقطة التى نود أن يتناولها علم الاجتماع الإسلامى هى: أمة العقيدة.. هل ينطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة كما يقول ابن خلدون، أى الهلاك بالترف كما تقول السنة الربانية المفسرة؟

نريد أن نفرق بين «الدولة الإسلامية» و«الأمة الإسلامية».

لقد هلكت الدولة الأموية بالترف، وهلكت من بعدها الدولة العباسية ودولة المسلمين بالأندلس، والدولة العثمانية.. كلها هلكت بهذا الداء المهلك الذى جعله الله فى سننه سببا لزوال الدول.

ولكن «الأمة الإسلامية» هل فنيت أو يكتب لها الفناء؟!

فأما المستقبل فغيب لا يعلمه إلا الله. وأما الحاضر فيقول: إن الله قد أعفى هذه الأمة - حتى اللحظة - من هذه السنة - إن كانت سنة! - وكتب لها البقاء.. خمسة عشر قرنا ربما كانت أطول عمر عاشته أمة واحدة فى التاريخ! وذلك على الرغم من فناء «دول إسلامية» كثيرة خلال هذا المدى من التاريخ.

والدلالة قائمة فى حركات البعث الإسلامى.. إنها تقول: إنه مازال فى كيان هذه الأمة ما يبعثها من جديد كلما أوشكت على الفناء، تحقيقا لوعد الله: «يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»[2] وحين يتجدد الدين تتجدد الأمة، لأن حياة هذه الأمة هى هذا الدين!

وليس من شأن هذه العجالة على أى حال أن تستعرض السنن الربانية كلها، أو تبسط الحديث فيها، فإنما هى إشارات.. مجرد إشارات!

ثانيا: الثابت والمتغير فى حياة البشرية

قضية الثابت والمتغير من القضايا الهامة فى علم الاجتماع. فمن الواضح أنه يوجد فى حياة البشرية ثوابت ومتغيرات. فما الذى يثبت وما الذى يتغير؟ وعلى أى أساس يثبت الثابت ويتغير المتغير؟ هل هناك أسس ومعايير؟ أم الأمر فوضى بلا نظام؟!

فأما دوركايم - الذى يرجع إليه كثير من «المفكرين» عندنا بلا ترو - فقد وضع

---

(١) سورة الإسراء [١٦].
(٢) أخرجه أبو داود.

الثوابت كلها - بما فيها الدين والزواج والأسرة - على الخط المتغير، وقال إنه لا توجد ثوابت على الإطلاق!

يقول فى كتاب «قواعد المنهج فى علم الاجتماع»:

«ومن هذا القبيل (يقصد محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية بأن لها جذورا فى نفوس الأفراد) أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية لدى الإنسان وبأن هذا الأخير مزود بحدٍّ أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف. وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان»!!

«وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية فى ذاتها، إذا صح التعبير... ومن ثم فليس من الممكن تبعا لهذا الرأى، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التى لا وجود لها فى ذاتها، موضوعا لعلم الأخلاق..»[1].

ثم قال فوق ذلك إن «العقل الجمعى» هو الذى يغير كل شىء فى حياة الأفراد، ويتحكم فيهم من خارج أنفسهم ويفرض عليهم كل ما يعتنقونه من العقائد والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك!

«.. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياتهم»[2].

ثم أضاف فى النهاية إن هذا العقل الجمعى المتحكم فى الأفراد من خارج كيانهم لا يثبت على حال!!

وهو لا ينفى الثبات على إطلاقه.

«ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا - وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية - فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير، وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا، والتى لا تخضع لإرادة أى فرد منا»[3]!

---

(١) إميل دوركايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى، طبع القاهرة، الطبعة الثانية ص١٦٨ - ١٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٥.

ودعك مؤقتا من التملص - غير العلمي - من الحقائق الدامغة التى لا مهرب منها إلا بالتحايل عليها، إذ يثبت أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجة «لعدد كبير من الضمائر الفردية»، ثم يقول فى نفس الوقت إنها «لا تخضع لإرادة أى فرد منا». وهى معادلة لا تتم على أى ميزان إلا ميزان الهوى المختل.

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾[1].

ولكن انظر إلى ما ينفى ثباته! إنه «القيم الإنسانية» بالذات: الدين والزواج والأسرة والأخلاق!

ولا يستحى دوركايم أن يجعل مرجعه فى ذلك عالم الحيوان!

«أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته. وإنه لمن الطبيعى جدا أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب. وذلك لأننا نلاحظ فى الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة»[2].

فهل كان دوركايم يكتب عن علم الاجتماع البشرى أم علم اجتماع الحيوان؟!

إن أثر اللوثة الداروينية واضح عند دوركايم، سواء فى رجوعه الصريح فى قضية الثابت والمتغير إلى عالم الحيوان، أو فى تصويره «للعقل الجمعى» الذى يؤثر فى الأفراد من خارج كيانهم، والذى يوازى غريزة القطيع عند الحيوان. ولا نستغرب إذن من صاحب هذا التفسير الحيوانى للإنسان أن ينفى أصالة الدين والزواج والأسرة والأخلاق فى فطرة الإنسان، لأنها ليست أصيلة فى عالم الحيوان!

* * *

القضية فى أمر الثابت والمتغير لها مدخلان ينتهيان فى النهاية إلى نتيجة واحدة: المدخل الأول هو المرجعية، والمدخل الثانى هو مراجعة التاريخ.

لمن المرجعية فى تقرير ما يجب أن يثبت، وما يباح فيه التغيير؟ أهى للخالق، العليم الحكيم، أم للإنسان الذى لا يخلق شيئا، وهو محدود العلم والحكمة؟

---

(١) سورة المؤمنون [٧١].

(٢) «قواعد المنهج»، المرجع السابق ص ١٧٣.

وهذه القضية عند المسلم ليست محل مراجعة، إنما يجادل فيها الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقول الله عنهم: ﴿إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾(١).

وأما الواقع التاريخي للإنسان، فهو يدلنا على أشياء غير التى أخبر بها دوركايم بغير دليل حين قال: «ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات (الدين والأخلاق والأسرة) ليست فطرية فى الإنسان»!!

إن كل ما يقوم به الإنسان من ألوان النشاط هو أصيل فى تكوينه. حتى شهواته التى قد ينشأ عنها انحرافه هى أصيلة فيه، وإن كان الانحراف بها عن مسارها الصحيح ليس هو الأصل الذى خلق الله هذه الشهوات من أجله، ولكنه يرد على الكيان البشرى، كما يرد المرض على الجسم وإن كانت الصحة هى الأصل فيه.

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب و الفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾(٢).

الأصل فى هذه الشهوات أن تكون دوافع لعمارة الأرض التى خلق الله الإنسان ليقوم بها.

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾(٣).

وحين تكون فى مسارها الصحيح - أى حين تكون ملتزمة بالثوابت التى فرضها الله - فهى عندئذ قوة معينة على الخير، مؤدية للخير، فى الدنيا والآخرة على السواء.

أما حين تنحرف عن المسار الصحيح - أى حين تصطدم بالثوابت التى فرضها الله - فهى عندئذ قوة مدمرة، تهلك الإنسان، وتفسد حياته فى الدنيا والآخرة على السواء.

وفى الوقت ذاته هى نقطة الابتلاء الدائمة التى يختبر بها الإنسان: هل يطيع فيها ربه، فيلتزم بالثوابت التى فرضها عليه، أم يطيع الشيطان؟

﴿ولكلٍ درجات مما عملوا﴾(٤).

وقد ثبّت الله الدين والزواج والأسرة، فقال عن الدين:

---

(١) سورة غافر [٥٦].
(٢) سورة آل عمران [١٤].
(٣) سورة هود [٦١].
(٤) سورة الأنعام [١٣٢].

﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[2].

وقال عن الزواج والأسرة :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾[4].

ويقول الواقع التاريخى إن الإنسان خلال حياته كلها - فيما عدا هذا الجيل الضائع الذى أخرجته عن صوابه عوامل شتى - كان له دين يعتنقه - صحيحا كان دينه الذى يعتنقه أو منحرفا[5] - وكان يمارس الزواج ويسعى إلى الحياة فى داخل أسرة . فإذا كان جيل من أجيال البشرية قد أفسد بعوامل شتى فلا يعتبر - من الوجهة العلمية البحتة - مقياسا ، ولا يلغى وجوده دلالة ظواهر اجتماعية لم ينقطع وجودها خلال عشرات من القرون ، ولا يحول الثوابت إلى متغيرات !

ثم إن الله ثبت «القيم الأخلاقية» التى ينبغى للإنسان أن يقيم عليها حياته ، ليكون جديرا بالكرامة التى كرمه بها خالقه يوم خلقه ، والتى وردت تفاصيلها فى الوحى الربانى .

وهنا نجد أن الواقع التاريخى يقول إن أكثر الناس لا يلتزمون بهذه القيم الأخلاقية ، وينحدرون عنها بدافع الهوى والشهوات .

ولكن انحراف الناس عن الأصل - ولو انحرف الناس كلهم فى جميع العصور[6] - لا يجعل الانحراف هو الأصل ، وذلك من المدخلين كليهما اللذين دخلنا منهما إلى قضية الثابت والمتغير : باب المرجعية ، وباب التاريخ .

---

(١) سورة الروم [٣٠]. (٢) سورة الأعراف [١٧٢].

(٣) سورة الروم [٢١]. (٤) سورة النحل [٧٢].

(٥) ستتكلم فى الفقرة التالية [الدين والفطرة] عن هذه القضية .

(٦) الواقع أن فى تاريخ البشرية فترات من الهدى وفترات من الضلال ، فليست كلها انحرافا عن الطريق .

فمن باب المرجعية نقول إن الذى يحق له أن يقول هذا حلال وهذا حرام . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح هو الخالق الذى خلق ، وهو العليم الحكيم . وهو الله الذى لا إله غيره .

ومن باب الواقع التاريخى نقول إن الناس ينحرفون نعم . ولكنهم حين ينحرفون لا يسلمون من نتائج انحرافهم ، بل يصيبهم الخلل والاضطراب والضنك ، والواقع المعاصر للغرب أكبر شاهد عليه ، ومعنى ذلك أن الثبات فى هذه القيم هو الواجب الذى يجب أن يكون ، وأن وضع هذه القيم على الخط المتغير هو الذى يشيع الخلل والاضطراب فى حياة الأمم والشعوب والجماعات والأفراد . فالثبات فيها إذن هو الأصل ، والتغيير هو الانحراف .

هذا بالنسبة للثوابت التى ثبتها الله ، والتى يجب أن تظل ثابتة لا تتغير مهما تغيرت أحوال الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمعلوماتية والتقنية ، لأنها لا تتعلق بهذه الأحوال المتغيرة ، إنما تتعلق بكيان «الإنسان» ، الذى هو إنسان منذ خلق ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو «الإنسان» . . لا هو حيوان ولا هو إله . .

فما الشأن بالنسبة للمتغيرات؟ ما الذى يتغير؟ ولماذا يتغير؟

يحدث التغيير من احتكاك العقل البشرى بالكون المادى ، فيتعرف على مكنوناته ، ويتعرف على خواص المادة ، فيسعى - بعقله وعضلاته - إلى تسخيرها لرغباته وحاجاته ، ثم يظل يحاول تحسينها وتجميلها وتكميلها حتى يصل بها إلى غاية ما يستطيع . ومن خلال هذه العملية الدائبة من المعرفة ، وتسخير نتائج المعرفة واستغلالها لتحسين أوضاع الإنسان وعمارة الأرض ، تتغير على الدوام فى حياة الإنسان أمور بعد أمور .

ويجدر بنا أن نعرف أولا ما الذى يتغير على وجه الدقة؟

هل تتغير دوافع الإنسان الأصيلة أم تتغير الطريقة التى يشبع بها الإنسان دوافعه؟

نأخذ الدافع الأكبر فى حياته : حب الحياة . هل يتغير من حيث الجوهر؟ كيف يتغير؟

ونأخذ حب الاستمتاع بما فى الحياة من ألوان المتاع . هل يتغير من حيث الجوهر؟ أم تتغير ألوان المتاع؟

بفطرته يحب أن يكون له مـأوى يأوى إليـه . فيـأوى - فى بداوته وقلة حيلتـه - إلى الكهوف . ثم ينشيء أكواخا من غصون الشجر . ثم يبنى أكواخا من الخشب المصنع ، أو بيوتا من الطين . أو بيوتا من الحجر أو قصورا شامخات . . ما الذى تغير؟ حب المأوى ، والسكن إلى المسكن ، أم صـورة المأوى ، ومـا يحـتـويه من أدوات الراحـة ، وأدوات التجميل والزينة؟

بفطرته يحب أن ينتقل من مكان إلى مكان ، يتعـرف على الجـديد ، ويزداد علـمـا بالبيئة من حوله ، ويحاول استغلال ما يحصل عليه فى تحسين أحواله . فينتقل - فى بداوته - على قدميه فى المساحة المحدودة التى يمكن لقدميه أن تحملاه فى إطارها . ثم يستأنس دواب الحمل ، فتوفر عليه جهد التحرك بجسده ، ويستمتع بتحرك «الأداة» وهو فوقها مستقر ، وهى تحمله إلى مسافات أوسع مما كانت قدماه تصلان إليه . ثم تزيد معلومـاته وقدراته فيـستنبط أدوات للحـمل أسرع وأكثر راحـة ، فيـختـرع السـيارة ، ويختـرع الطائرة ، ويختـرع الصاروخ ، ويدور الأرض كـلها فى سـاعات . . مـا الذى تغير؟ رغبة التنقل أم الوسيلة؟

بفطرته يحب «المعرفة» . . فيسعى - بقدر ما تتيح له أدواته ، وهى السـمع والبـصر وبقية الحواس - إلى التعرف على البيئة القريبة الملاصقة ، ثم المجاورة ، ثم ما تحمله إليه أدوات الحمل . . ويُعْمِلُ عقله فى محاولة التعرف على طبيعة الأشياء التى يصادفها ، ومعرفة خواصها ، وكيفية الانتفاع بها ، فتتجمع عنده حصيلة من «المعلومات» تكون - مع التجربة والخبرة - جانبا من «المعرفة» المتاحة له . ويورث هذه المعلومـات للجيل الذى يليه ، وهذا الجـيل الجديد يجد مـعارف جديدة فيضيفـهـا إلى مـعـارفه الموروثة ، فتتسع دائرة المعرفة ، ثم تتعدد جوانبهـا وتتفرع ، وتصبح مـهـمة التلقين أعقـد وأطول مدى ، فيتخصص لهـا «معلمون» ويحتـاج الأمر إلى أمـاكن للتعليم يتلقى فيها الصـغار حصيلة المعرفة المتاحة . . ثم تتوسع دور التعليم فتصبح مـدارس ومعـاهد وجامعات ، وتتوسع الأدوات فتصبح كتبًا وصحفا ومجلات . . وكمبيوترات!

ما الذى تغير؟ حب المعرفة من حيث الجوهر؟ أم وسائل المعرفة؟

وقس على ذلك ما شئت!

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن المستجدات كلها لا تضيف جديدا ولا تغير شيئا فى حياة الإنسان ، بل هو فى تغير دائم ، تختلف وتيرته من عصر إلى عصر ، ومن قطر إلى قطر ، ومن شـخص إلى شـخص . . ولكن الذى نريد أن نلفت النظر إليـه أن هذا

التغير الدائم - أيا كانت مساحته، وأيا كانت أدواته، وأيا كانت مجالاته - لا يغير الحقيقة الجوهرية للإنسان . . لا يغير دوافعه الأصيلة، ولا أهدافه الأصيلة، ولا غاية وجوده الأصيلة، وهذا هو الذى تأبى الجاهلية المعاصرة أن تصدقه، وعدم تصديقها إياه هو الذى يورثها الخبال!

مرة أخرى نعود إلى جوهر القضية . .

الخبل الأكبر هو فى تصور «الإنسان» . . حيوان مرة، وإله مرة، حصيلتهما هما الحيوان المتأله، الذى يعيش حياته الدنيا بلا معاد!

كلا! إنه هو «الإنسان»! لا حيوان ولا إله! تتغير «صور» حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعلمية والمعلوماتية، ويظل من حيث الجوهر هو الإنسان، الذى خلقه الله ليكون خليفة فى الأرض، يعبد الله على بصيرة ويعمر الأرض بمقتضى منهج الله.

و«الثوابت» - لا المتغيرات - هى التى تحفظ له كيان الإنسان، وتحقق له وجوده على مستوى الإنسان.

وحين تختل الثوابت . . حين توضع على الخط المتغير كما تضعها الجاهلية المعاصرة، فما الذى يحدث فى حياة الإنسان؟!

تحدث كل الاختلالات الحادة التى تنتاب الإنسان المعاصر، وتقلب حياته إلى «الضنك» الذى أنذره الله به، رغم كل ما هو مفتّح له من الأبواب، ورغم وصوله بالأمس إلى القمر وغدا إلى المريخ!

ما مر على البشرية عهد من الظلم والفساد والانحطاط الخلقى كما هو حادث فى جاهلية القرن العشرين التى توشك أن تنتقل بكل خبلها إلى القرن الحادى والعشرين.

إن الثوابت هى «القيم» التى تحكم حياة الإنسان، فحين يعيش الإنسان بغير قيم فكيف تكون حياته إلا قانون الغاب الذى يحكم السياسة والاقتصاد اليوم، ويجعل المستضعفين من البشر فريسة لمن يسمون أنفسهم «الدول العظمى»، وإلا التدنى الأخلاقى والروحى الذى يشمل الصغار والكبار من الدول والشعوب والأفراد، ويرسخ فى الأرض عبادة الشيطان؟!

أرُقِىٌّ هذا أم انتكاس؟

إنما يحدث الرقى الحقيقى حين تحكم الثوابتُ المتغيرات، فيزداد الإنسان رقيا كلما زاد علما على المنهج الربانى.

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1].

أما حين تحكم المتغيرات الثوابت فتزيحها من الطريق فالله يقول:

﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[2].

ثالثا: الدين والفطرة

الدين من الثوابت التى تشتمل عليها الفطرة، ولكننا نخصه بحديث خاص لأهميته الخاصة ولأن الجاهلية المعاصرة تجتهد بكل قوتها لزحزحته من مكانه الثابت، ووضعه على الخط المتغير، الذى ينتهى به إلى الزوال!

ولا تدارى الجاهلية المعاصرة موقفها من الدين، إذ تقول صراحة إن الحياة البشرية قد مرت فى ثلاثة أطوار، طور السحر والخرافة، وطور التدين، وطور العلم. وأن كل طور قد أخذ دوره وانتهى وأفضى إلى ما بعده، فالسحر أخلى مكانه للدين، والدين أخلى مكانه للعلم، والعلم هو المتربع على العرش اليوم.. وربما إلى نهاية الكون والحياة البشرية.

وحقيقة أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر اليوم تحت مطارق العلم ذاته، الذى لجأت إليه الجاهلية المعاصرة ليخلصها من سلطان الدين! فالعلم اليوم هو الذى يرد الناس إلى الحقيقة التى أرادوا أن يهربوا منها وهى أن هذا الكون بما يحمل فى أطوائه من دلائل القدرة المعجزة لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه بنفسه، ولا يمكن أن يكون قد وجد بغير موجد.. ولابد أن يكون قد خلقه إله قادر بغير حد، عليم بغير حد، حكيم غاية الحكمة، فعال لما يريد..

---

(١) سورة فاطر [٢٨].

(٢) سورة الأعراف [١٧٥ - ١٧٦].

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

صحيح أن موجة الإلحاد قد بدأت تنحسر تحت مطارق العلم، ومن لذع الألم الذى أحدثه الفراغ من الدين، والجوعة الروحية التى تبحث اليوم عن الإشباع.

ولكن المعركة مع الشيطان وأوليائه ليست سهلة، ولن يخرج الناس من دنس الشهوات التى أغرقهم فيها الشيطان لينسوا ربهم ويكفروا به، بمجرد أن تقول لهم: إن هذا دنس، أو بمجرد أن تقول لهم: آمنوا بالله ورسله.

إنه جهاد.. وجهاد قد يطول. فقد تسلحت الجاهلية المعاصرة بكل سلاح ظنت أنه يحميها من عودة الدين، وكان من بين أسلحتها- ومن أفتكها - إغراق الناس فى الشهوات بحيث يكرهون من يحاول أن يخرجهم من وهدتهم ويمد لهم طوق النجاة لينجوا من الهلاك.

والمسلمون هم المؤهلون - بإسلامهم - أن يقودوا البشرية إلى البر الآمن، ويخرجوها بإذن ربها من الظلمات إلى النور. ولكنهم لن يفعلوا ذلك حتى يعودوا هم أنفسهم عودة صادقة إلى الإسلام، فيمارسوه فى عالم الواقع، ويكونوا منه على وعى وبصيرة.

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[2].

والعلم جزء من الدعوة.. ومن بين العلم الذى يخدم الدعوة بيان حقيقة الفطرة ومكان الدين منها.

* * *

أودع الله فطرة الكون كله - والإنسان جزء منه - أن يتجه إلى الخالق، ويسبح بحمده:

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا﴾[3].

---

(١) سورة فصلت [٥٣].

(٢) سورة يوسف [١٠٨].

(٣) سورة الإسراء [٤٤].

ولكن الإنسان تفرد فى خلقه، وتفرد كذلك فى عبادته. خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخ فيه من روحه، فأكسبته النفخة العلوية الوعى والإرادة والحرية، والإشراقة التى أذهبت عنه عتامة الطين.

وهو - فى وضعه السوى - يعبد الله ويسبح بحمده عن طريقين اثنين، كلاهما من أثر النفخة العلوية فى قبضة الطين، طريق «الوعى» وطريق «الوجدان» الذى نطلق عليه فى مصطلحاتنا اللغوية طريق الروح.

متى يبدأ الوعى؟

يظن كثير من الناس أن حالة «الوعى» التى تتجه إلى الله تأتى متأخرة فى مرحلة النضج، أو على الأقل فى مرحلة ابتداء النضج، أى مرحلة البلوغ.

ولكنا إذا دققنا الملاحظة نجد أن بداية الوعى تبدأ قبل ذلك بكثير، منذ الطفولة!

أرأيت إلى الطفل بعد أن يستكمل قدرته على النطق فى الخامسة أو السادسة (وأحيانا قبل ذلك) إذ يرهق أبويه بالأسئلة عن كل شىء حوله: من الذى صنعه؟ وكيف هو مصنوع؟ ولماذ هو على الحالة التى هو عليها؟

لماذا تشرق الشمس بالنهار ولا توجد فى الليل؟ وأين تكون قبل أن تشرق ؟

لماذا يظهر القمر فى الليل؟

لماذا كانت السماء زرقاء؟

لماذا يزهر النبات؟

كيف ينمو الشجر؟

كيف ينزل المطر من السماء؟

لماذا كان ورق الشجر أخضر؟

كيف جئت إلى الوجود؟.

وعشرات من الأسئلة ومئات، يتضجر الآباء من كثرتها، وأحيانا لا يجدون لها إجابة!

إن إجابتها فى الحقيقة عبارة واحدة: هى هكذا كما خلقها الله!

إنه بدء تيقظ الفطرة عن طريق الوعى، تسأل فى الحقيقة عن الخالق لتتوجه إليه!

ومهمة التربية هى تركيز هذا الوعى، ووضعه على المسار الصحيح.

* * *

متى يبدأ الوجدان طريقه.. طريق الروح؟

لا ندرى على وجه التحديد[1].. ولعل الناس فى هذا الأمر مختلفون.. منهم من يستيقظ وجدانه مبكرا، ومنهم من يتأخر. منهم من تشرق روحه فيشتعل وجدانه، ومنهم من تخبو روحه حتى تكاد تنطمس.. ولكنا نحسب - من الملاحظات الفردية - أن نهاية مرحلة الطفولة وبداية فترة المراهقة هى الوقت الذى يتوقع فيه أن يتحرك الوجدان.. ومهمة التربية فى جميع الأحوال هى التركيز على هذا الوجدان ليأخذ مساره الصحيح.

* * *

فى الفطرة منافذ يدخل منها الإيمان إلى النفس الإنسانية، تتلقى إيقاعات الكون، فتوقظ الفطرة إلى عظمة الله، وقدرته المعجزة، وتفرده بالخلق والرزق والتدبير.. وتفرده بالألوهية، فتتجه الفطرة إلى الله.

وفى كتاب الله توجيهات للفطرة، تدخل من هذه المنافذ ذاتها التى أوجدها الله فى النفس البشرية، فتهتدى إن كتب الله لها الهداية، وتستقيم على الطريق.

أوسع المنافذ هى آيات الله فى الكون. إن لها تأثيرا ضاغطا على الحس، لا مهرب له منه إلا أن يتعمد الإنسان أن يوصد قلبه، فلا يتلقى الإيقاع!

الكون بعظمته المعجزة، ودقته المعجزة فى آن واحد.. هذه الآماد التى لا يحدها البصر، وهذه الأجرام التى لا يحصيها العد.. والدقة المعجزة فى حركة الأفلاك، وانتظام الليل والنهار والشمس والقمر.. بل الدقة المعجزة فى ورقة الشجرة. فى ريشة الطائر. فى شذى الزهرة. فى سقسقة العصفور.. بل الدقة المعجرة فى تركيب العين. فى تركيب الأذن. فى حركة الدم فى الشعيرة الدقيقة. فى العصب الذى يحمل الإشارة للمخ. فى عملية التفكير. فى عملية التذكر. فى الحياة بكل تفصيلاتها فى الكائن الحى!

---

(١) هذه نقطة حرية أن يدرسها علماء المسلمين دراسة علمية تجريبية.

من ذا الذى يطيق حسه أن يبتعد عن تلقى الإيقاع إلا أن يكون - والعياذ بالله - قد أغلق النافذة عامدا لكى لا يتأثر بالإيقاع :

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[1] .

* * *

الحركه . . سواء فى الكون المادى أو فى الحياة البشرية من المؤثرات التى توقظ الحس . .

من الذى يحرك الأجرام فى السماء؟ من الذى يحرك الأحداث فى الأرض؟

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[2] .

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾[3] .

* * *

ظاهرة الموت والحياة . . تشد الحس إلى «المحيى المميت» الذى بيده الموت وبيده الحياة ، يَقْدُرُ منهما ما يشاء لمن يشاء ، فيجرى قدره بما شاء سبحانه ، لا يقف فى طريقه حائل ، ولا يعترض طريقه معترض .

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4] .

* * *

الغيب المستور كله . . الذى لا يملك الإنسان وسيلة إليه ، مع شدة تشوّفه إلى

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] .

(٢) سورة البقرة [١٦٤] .

(٣) سورة آل عمران [٢٦ - ٢٧] .

(٤) سورة الزمر [٤٢] .

الاطلاع عليه . . يشد الحس إلى عالِم الغيب ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال حبة من خردل .

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾[1].

* * *

هل للحس البشرى مهرب من إيقاعات الكون والحياة ، إلا أن يتعمد إغلاق المنافذ كلها لكيلا يصل إلى حسه صدى آيات الله :

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[2].

الأصل فى الإنسان الإيمان ، والكفر هو المرض الذى يصيب القلوب ، فتنحرف عن الأصل .

«إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، فاجتالتهم الشياطين . . »[3].

ومع ذلك تزعم الجاهلية المعاصرة على يد «علمائها!» أن الدين ليس من الفطرة ! . أو أن الدين أخلى مكانه للعلم ! أو أن الإنسان شب عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله !

ولكن المرض الذى يصيب الفطرة لم يكن قط - فى أى جاهلية سابقة - إنكار الخالق سبحانه وتعالى ، إنما كان هو الشرك . . تصور وجود آلهة أخرى مع الله .

وما أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها ! فالفطرة - حتى فى مرضها - تعرف ذلك دون إرسال رسول ! ولا قال رسول قط لقومه إن هناك إلها فاعبدوه ! . فالفطرة - حتى فى مرضها - تتجه إلى الإله الذى تتصوره ، فتعبده وتسبح بحمده ، وتقدم له الصلوات ، وتقدم له القرابين .

إنما بعث الرسل كلهم ليقولوا للناس : ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[4].

بعثوا لتصحيح العقيدة ، لا لإيجاد العقيدة فى النفوس . .

إلا الجاهلية المعاصرة . . أول جاهلية فى التاريخ أنكرت وجود الله ، وتبجحت

---

(١) سورة الأنعام [٥٩].
(٢) سورة يونس [١٠١].
(٣) أخرجه الشيخان .
(٤) سورة هود [٦١].

بالإلحاد، بمعنى إنكار وجود الله، وسمت هذا «علما!!» وأسست له مذاهب، وأقامت له دراسات!!

* * *

وعالم الاجتماع المسلم حاشاه أن ينزلق إلى تصديق علم الاجتماع الجاهلى الذى ينكر أن الدين فطرة فى النفوس، ولو قال به ألف «عالم» كدوركايم، أو غيره من المفكرين.

كما أن عالم الاجتماع المسلم لا يثقل على حسه الواقع المنحرف الموجود اليوم فى الأرض، ولا يصده عن ذكر الحق، سواء أعجب الحق الناس أو لم يعجبهم، واستجابوا له أو أعرضوا عنه.

الحق أن الدين فطرة:

﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (1).

والحق أن الأرض - فى القديم والحديث - تعج بالشرك:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾(2).

والحق أن الله لا يرضى لعباده الشرك:

﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾(3).

والحق أن الدين الذى يطلبه الله من عباده ليس مجرد أن يؤمنوا بأنه سبحانه هو الخالق الرازق المدبر، فقد كان العرب المشركون يؤمنون بذلك كله ويقرون به، ولكنهم كانوا مع ذلك مشركين.

إنما الدين الذى يطلبه الله من عباده أن يؤمنوا به وحده، ويعبدوه وحده، ويتبعوا شرعه وحده، ويتخذوا منهج حياتهم من منهجه وحده، فيحلوا ما أحل ويحرموا ما حرم ويبيحوا ما أباح ويمنعوا ما منع . . وإلا فليسوا مؤمنين.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا درس فى العقيدة. ولكنا حين نتحدث عن مكان العقيدة من الفطرة نكون فى صميم علم الاجتماع. والفرق بيننا وبين «علماء» الاجتماع عندهم فى هذا الشأن أننا نثبت - بالدليل - وهم ينفون بلا دليل!.

ثم إن درس العقيدة عند المسلم ليس درسا منقطعا فى ركن من الحياة، إنما هو درس يصحبه المسلم معه ويحتاج إليه أينما ذهب فى مجالات الفكر والحياة!.

---

(1) سورة الروم [30].   (2) سورة يوسف [106].   (3) سورة الزمر [7].

رابعا: الأسرة والمجتمع

الأسرة - كما أشرنا من قبل - من الثوابت التى ثبّتها الله سبحانه وتعالى، وشهد بثباتها الواقع التاريخى للبشرية، وإن كانت الجاهلية المعاصرة تجادل فى ثباتها.. لأول مرة فى التاريخ.

والجاهلية المعاصرة لها ظروفها التى دفعتها إلى تحطيم الثوابت كلها، والتمرد عليها، ولكنها تدفع ثمن ذلك غاليا من أمنها وطمأنينتها وهناءة عيشها. فليس أحد حرا فى أن يفعل فى نفسه وحياته ما يشاء مخالفا لمنهج الله. ولئن كان الله سبحانه وتعالى لا يعاقب المتمردين على سلطانه فى التو واللحظة، إنما يمهلهم، ويمد لهم إلى حين، فالعبرة ليست بفترة الإمهال - التى هى فترة استدراج - إنما هى بالنتائج النهائية لا فى الآخرة وحدها، بل فى الحياة الدنيا كذلك.

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾[1].

﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون* وأملى لهم إن كيدى متين﴾[2].

﴿فليضحكوا قليلا، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون﴾[3].

لقد تمردت الجاهلية المعاصرة على هذا الأصل الثابت الذى ثبّته الله لحكمة، وجعل له روابط متينة تثبّته فى القلب البشرى وفى الحياة البشرية، فأصابها من هذا التمرد كوارث كثيرة ما كانت تخطر لها على بال!

لقد فقدت الزوجية سكنها وهناءتها.

وإن هذا السكن لهو من الآيات التى يلفت الله النظر إليها ليتفكر فيها الناس:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4].

---

(١) سورة الشعراء [٢٠٥ - ٢٠٧].
(٢) سورة الأعراف [١٨٢ - ١٨٣].
(٣) سورة التوبة [٨٢].
(٤) سورة الروم [٢١].

وحين حولت الجاهلية المعاصرة علاقة الزوجين - الذكر والأنثى - إلى علاقة جنس، وعلاقة شهوة لا علاقة مودة ورحمة، فقد فقدت السكينة التى خلق الله هذه الرابطة من أجلها، فحين تبرد حرارة «الحب» [1] - وهى عرضة دائما لأن تبرد - تنفصم العلاقة، ويتفرق الشركاء . . ويتشرد الأطفال .

ومشكلة جنوح الأحداث من المشاكل «الاجتماعية» الخطيرة التى تقلق بال الغرب - أو تقلق أصحاب الوعى فيه - فيجتمعون، ويأتمرون، ويتباحثون، ثم لا يخرجون بحل حقيقى، لأنهم يتصايحون وهم داخل القفص لا يخرجون منه ليحطموه، ويستمتعوا بالطلاقة الحقيقية التى كتبها الله للمستجيبين له .

ومن وراء مشكلة الجنوح مشكلة الشذوذ . . وهو داء كتب الله اللعنة على من أصيب به، ولكنه فى حياتهم لا ينحسر، بل يزداد انتشارا، تنفخ فى أواره الشياطين التى تسعى إلى تدمير البشرية .

كم من الطاقات يبددها الجنوح إلى الجريمة، ويبددها الشذوذ؟

وأى هناءة يحس بها الرجال والنساء والأطفال فى هذا الجو الموبوء؟

إن الأسرة هى النظام الربانى، الذى جعل الله فيه السكينة والبركة والأمن والطمأنينة والنمو السوى للأجيال .

وللأسرة ولا شك مشكلاتها، التى هرب منها الجاهليون بحماقة ليقعوا فى أشد منها!

لا شىء فى الحياة الدنيا يمثل نعيما خالصا بلا تنغيص! فقد كتب الله الكَبَدَ والكدح على البشر فى الحياة الدنيا - لحكمة يريدها - ثم كتب النعيم الخالص للمستجيبين إليه من عباده فى الحياة الآخرة جزاء ما أطاعوه فى الحياة الدنيا .

﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ [2].

﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ [3].

«فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [4].

---

(١) ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿قد شغفها حبا﴾ تعبيرا عن الشهوة الملتهبة، بينما العاطفة الراسية المستمرة سماها «مودة ورحمة» .

(٢) سورة الحجر [٤٨]. (٣) سورة ق [٣٥]. (٤) أخرجه البخارى .

ولكن مشكلات الأسرة، وما تحمل فى طياتها من معاناة، جزاؤها فى الحياة الدنيا هو هذا السكن والسكينة والمودة والرحمة والنمو السوى للأجيال. . فماذا كان جزاء تحطيم الأسرة، والحياة على طريقة الحيوان. . بل أضل من الحيوان؟!

لقد ظلت الجاهلية المعاصرة تعمل على تحطيم الأسرة كأنما هى موكلة بالقضاء عليها من قبل الشيطان نفسه.

كان أول خطوات التحطيم إخراج المرأة من البيت لكى تعمل، بحجة تحريرها. . ورفع الظلم الواقع عليها، ولقد كان الظلم واقعا عليها حقا، ولكن «تحريرها» على هذا النحو لم يكن هو العلاج، لا لها ولا للمجتمع الذى كان يظلمها.

ثم عُلِّمت على مناهج الرجل فاسترجلت، وما كان هذا خافيا على المخططين.

يتعلم الرجل ليعمل. وهذا دوره الذى خلق له. يكدح خارج البيت ليؤمن البيت، ويؤمن الأسرة التى تقيم فى البيت، ويمهد لإنشاء جيل جديد سليم قدر الطاقة تحت إشراف ربة البيت ورعايتها.

ولكن المرأة التى تعلمت - أو عُلِّمت - على مناهج الرجل صارت مثله تريد أن تعمل. . فعملت. . ولكن لمن؟!

حين خرجت لتعمل لم يعد هناك بيت! ولم تعد هناك أسرة تقيم فى البيت! ولم يعد هناك مجال لإنشاء جيل جديد تحت رعاية ربة البيت!

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين!

قالوا لها: لا بأس عليك: سننشئ المحاضن التى تقوم بدورك فى البيت، لتتفرغى أنت للعمل! وأطفال المحاضن هم الذين يشكو المجتمع الغربى من ظاهرة الجنوح فيهم (Delinquency).

ولعبت أيدكثيرة فى أسعار الحاجيات فرفعتها رفعا تدريجيا دائبا لا يتوقف، مع خفض القيمة الشرائية للعملة خفضا دائبا بنفس المقدار. بالإضافة إلى عملية دائبة أخرى تحول الكماليات إلى ضروريات، وتبث - بالإعلان - روحا من التلهف الدائم على الشراء. ومن ثم لم يعد يكفى دخل الرجل وحده للقيام بتكاليف «البيت!» المكتظ بالأشياء الخاوى من الحياة والأحياء! وصار عمل المرأة أمراً لا معدى عنه، لتتحمل نصيبها من التكاليف!

ولم يكن ذلك خافيا على المخططين.

كيف تنشأ «الأسرة» فى هذا الجو؟ وطرفاها مشغولان بالعمل، إن لم يكونا مشغولين كذلك بالاستمتاع على مذهب «متع نفسك Enjoy yourself» والأولاد فى المحاضن.. أو فى الطريق؟!

ثم تولت مناهج التعليم ووسائل الإعلام تخريج أجيال «متحررة» لا تقبل التدخل فى «حريتها الشخصية»! وتُعَوَّد على الانضباط الشديد فى كل شىء إلا فى القيم الخلقية، التى صورت لهذه الأجيال - ولمربّى الأجيال أيضا - على أنها قيود سخيفة لا معنى لها، وأنها كوابت تكبت الشخصية وتكبت «النشاط الحر!» فضلا عن كون التمسك بها يعد «رجعية» بالية لا تتناسب مع حركة «التطور»!

وتضافرت العوامل كلها - مضافا إليها المخدرات، ومسلسلات التلفاز والفضائيات - لإخراج الجيل المنحل الذى عهد إليه الشيطان بتدمير «الإنسان»![1]

* * *

والباحث المسلم فى علم الاجتماع عليه أولا أن يفطن لهذا كله، ثم عليه أن يبين للناس حرص الإسلام الشديد على الأسرة، والحكمة من هذا الحرص الشديد، البادى فى التشريعات والتوجيهات، والممارسة التاريخية لهذه الأمة قبل أن تتفشى فيها العدوى من الجاهلية المعاصرة.

إن الأسرة هى المحضن الطبيعى الذى تتربى فيه الأجيال على مكارم الأخلاق، ولا توجد - حتى الآن - مؤسسة أخرى يمكن أن تقوم بهذا العمل الضخم بالصورة التى تقوم بها الأسرة.. إنما تقوم المؤسسات كلها - حين يحسن توجيهها وتنظيمها - بالمساعدة فى هذه المهمة الرئيسية، التى تقوم بها الأسرة بطريقة شبه تلقائية، لأنها تملك العنصر الأهم، ذا الفعالية العالية فى العملية التربوية، وهو الحب الفطرى الذى يكنه الوالدان لأبنائهما، ويكنه الأبناء للوالدين، والذى لا يتوافر - بحكم الفطرة - بالقدر اللازم إلا بين الآباء والأبناء!

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمايبلغن عندك الكبر أحدهما أو

---

(١) اقرأ - إن شئت «دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾[1].

خامسا: علاقات الفرد والمجتمع

حرصت الجاهلية المعاصرة، وعلم الاجتماع الجاهلى معها، على تصوير العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة خصام وصراع، ولا مجال فيها لعلاقة ود صادق ولا تعاون قلبى!

وسواء كانت الجاهلية - فى المعسكر الرأسمالى - تعيش الفردية الجانحة، أو كانت - فى المجتمعات الاشتراكية قبل انهيار الشيوعية - تعيش الجماعية الطاغية، ففى كلتا الحالتين لا تتفق مصالح الفرد والمجتمع.. ولا يصطلحان!

فى الأمم التى تعيش الفردية الجانحة يصور المجتمع على أنه الطاغية الجبار، الذى يريد أن يكبت كيان الفرد، ويخضعه لمصلحته هو على حساب مصلحة الفرد، ويفرض عليه من القيود ما يتعارض مع حريته الشخصية ومع نموه الحر.. ويوجه الفرد دائما إلى التمرد على تلك القيود (التى تتمثل فيها فى الواقع الثوابت المتعلقة بالقيم الأخلاقية والدين والزواج والأسرة) بينما تمارس الرأسمالية حريتها كاملة فى الطغيان والاستغلال والاستعباد، دون أن يجرؤ أحد على الحد من سلطانها الطغيانى!!

ويستوى أن يكون المحرض على تكريه الفرد فى المجتمع وتبغيضه لتدخله فى شئونه «عالم اجتماع» كدوركايم الذى يقول: «إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من حياتهم»[2].. أو «عالما نفسيا» كفرويد، الذى يقول فى كل كتبه إن «السلطة» المتمثلة فى الدين والوالدين والمجتمع هى التى تصيب الفرد بالعقد النفسية والاضطرابات العصبية[3].. أو كان «كاتبا» مثل سارتر الذى يقول إن «الجحيم هو الآخرون»[4].. أو «مربيا» مثل «جون ديوى» الذى يقول إن: التربية يجب أن تكون

---

(١) سورة الإسراء [٢٣ - ٢٤]. (٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) راجع بصفة خاصة كتابه «The Ego and the Id» وكتابه Totem and Taboo.

(٤) عنوان مسرحية لسارتر.

عملية متحققة بنفسها فى ذات نفسها دون تدخل من أى سلطة خارجية لتفرض هدفا خارجا عن العملية التربوية يعوق النمو الحر للفرد[1]. أو إيحاءً مسموما فى فيلم سينمائى أو قصة أو مسرحية أو مسلسل تليفزيونى . . ففى النهاية يلتقى هؤلاء جميعا فى أن «الفرد» يجب أن تتاح له الحرية إلى أقصى الحدود، وأن «المجتمع» ليس له أن يفرض القيود!

إنه ذات الشعار الذى رفعته الرأسمالية اليهودية أول مرة «Laissez Faire, Laissez Passer» دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر (من حيث يشاء)! وليذهب المجتمع إلى الجحيم!

أما فى الأمم التى كانت تعيش الجماعية الطاغية، فالفرد يصور فيها على أنه ذلك الأنانى البغيض الذى يريد أن يحقق كيانه على حساب «المجتمع»، وأنه بأنانيته الطاغية هو العدو الذى ينبغى للمجتمع أن يسحقه تحت أقدامه، ويتخلص منه ولو بالقضاء الكامل عليه!!

فى الحالين لا صلح ولا وئام!

وقد يكون هذا وصفا صادقا للمجتمعات الجاهلية الجانحة ذات «اليمين» وذات «اليسار»!

ولكنه ليس هو «الإنسان» كما ينبغى أن يكون!

والمجتمع المسلم له أوصاف غير تلك الأوصاف!!

﴿فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عندالله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون* والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون﴾[2].

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما* والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين

---

(١) يكرر ديوى هذا الكلام فى كل كتاباته، ولكنه ينسى فيقول إن هدف العملية التربوية يجب أن يكون هو الديمقراطية! أى أنه يسمح بوجود هدف خارجى، بشرط ألا يكون هو الدين! فهو وحده هو المحظور!

(٢) سورة الشورى [٣٦-٣٨].

ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما* والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾[1].

والمجتمع المسلم ليس مجموعة من الملائكة، ولن يكون البشر مجتمعا من الملائكة فى يوم من الأيام! إنهم بشر. . يتخاصمون ويتنازعون ويقع بينهم الصدام والصراع . . ولكنهم مع ذلك يظلون أرقى نفسيا وخلقيا من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يدينون دين الحق.

وشهادة التاريخ أولى بالاعتبار.

لقد ظل المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الحالية التى تجمعت فيها كل الأمراض من الداخل والخارج، أقل المجتمعات البشرية جرائم، وأقربها إلى روح المودة والتسامح والتعاون على البر والتقوى، وأقلها تناولا للخمر والمخدرات . .

ولنأخذ هذه المعايير الثلاثة: الخمر والمخدرات والجريمة، ولنتدبر دلالتها.

الخمر والمخدرات عمليتا هروب من الواقع، ومحاولةٌ لإيجاد «واقع» آخر - فى الخيال - غير الواقع الحقيقى الذى هرب منه مدمن الخمر والمخدرات . .

لماذا يهرب الناس من واقعهم؟! هل يسعون إلى الهروب منه لو كانوا سعداء به؟

والجريمة - كما هو واضح - عدوان من الفرد على المجتمع، فهل يلجأ إلى العدوان ونفسه منسجمة مع ما حولها، راضية بالعلاقات بينها وبين الآخرين؟

فإذا اجتمعت الأمراض الثلاثة كما هى مجتمعة اليوم فى المجتمع الغربى، فدلالتها واضحة: أن العلاقات قد ساءت بين الفرد والمجتمع، وأن الفرد غير سعيد بواقعه يريد أن يهرب منه.

ودليل المخالفة واضح كذلك . . فحين تقل نسبة الخمر والمخدرات والجريمة فى

(١) سورة الفرقان [٦٣ - ٧٦].

المجتمع - كما كانت قليلة فى المجتمع المسلم إلى ما قبل نكسته الأخيرة - فمعنى ذلك أن علاقات الفرد والمجتمع جيدة، وأن الفرد ليس ناقما على مجتمعه، ولا المجتمع ناقم على أفراده إلى الحد الذى يؤدى إلى انتشار الجريمة[1].

وإذن فقد وجد فى واقع التاريخ، ولفترة غير قصيرة من الزمن، مجتمع لا يحس الفرد فيه أنه مضغوط مكبوت، مغلوب على أمره، يتحين الفرص ليتمرد على المجتمع وينقض عليه، ولا يحس المجتمع أن الأفراد فيه أعداء متربصون يجب سحقهم والقضاء عليهم..

فكيف حدث هذا الانسجام بين الفرد والمجتمع على هذه الصورة فى عالم الواقع؟

المفتاح فى الثوابت!

فحين يلتقى الفرد الواحد والأفراد الآخرون الذين يكونون المجتمع على الثوابت، يقل الصراع إلى أقصى حد، ويحس المجموع بالروابط الذى تشد بعضه إلى بعض، فيصبح كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2].

والرباط الأعظم فى هذه الروابط بطبيعة الحال هو الدين، هو العقيدة فى الله واليوم الآخر. فهو العقدة التى تضم الخيوط جميعا، وتربطها بعضها إلى بعض.

ولا يخرج الناس مع ذلك عن بشريتهم، ولا يصبحون ملائكة، وتظل فيهم دوافع البشر، وتعتمل فى نفوسهم نوازع البشر، ولكن على مستوى «الإنسان» لا على مستوى الحيوان!

* * *

المجتمع - فى حقيقته - نابع من الفرد.

وقد اجتهد دوركايم بصفة خاصة - وإن كان قد اشترك معه كثيرون غيره - فى

---

(١) لا يوجد مجتمع بشرى - ولا مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم - يخلو خلوا كاملا من الجريمة. ففى مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم من سرق ومن زنا ومن شرب الخمر، وأقيم عليهم الحد. ولكن هناك فرقا واضحا لا ينكره إلا مغالط، بين مجتمع لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر، ومجتمع الجريمة فيه شىء عادى دائم الحدوث.

(٢) متفق عليه.

تصوير المجتمع على أنه قوة ضاغطة على الفرد من خارج كيانه، تسيّره على غير هواه!

«إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياتهم».

وقد سبق أن أشرنا إلى التملص - غير العلمى- الذى وقع فيه دوركايم حين اضطر أن يعترف أن الظواهر الاجتماعية تنشأ نتيجةً لعدد كبير من الضمائر الفردية، ومع ذلك فهى فى زعمه توجد خارجة عنا!

«ولكن لما كان هذا العمل المشترك (الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية) يتم خارج شعور كل فرد منا، وذلك لأنه نتيجةٌ لعدد كبير من الضمائر الفردية، فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير، وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا، والتى لا تخضع لإرادة أى فرد منا»!![1].

وندع دور كايم لتخبطه «العلمى!» - وإن كنا نعجب كيف لا يرى أنصاره المدافعون عنه ذلك التخبط - ونسأل أنفسنا: من أين ينبع المجتمع؟

إن الكائن البشرى ذو شعبتين فى آن واحد، يكوّنان فى مجموعهما شخصيته: شعبة فردية تسعى إلى إثبات الذات وتوكيدها، وشعبة اجتماعية تسعى إلى الاجتماع بالآخرين، والأنس بهم، والاشتراك معهم فى بعض الأمور على الأقل إن لم يكن فى كثير من الأمور.

كلتا النزعتين أصيلة فيه.. ليست إحداهما مفروضة عليه من خارج كيانه!

والمرجع فى ذلك هو الواقع!.

مَنْ منَ البشر يحب أن يعتزل الناس ويعيش مفردا لا يتصل بأحد ولا أحد يتصل به إلا أفراد نادرون لا يحسب لهم حساب فى التعداد البشرى الكثيف الذى يبلغ اليوم مليارات؟!

وبقية البشر - الطبيعيين - ما حالهم؟

حالهم هو الذى ذكرناه.. تارة تبرز فى الإنسان ذاته الفردية، فيحب أن يثبت ذاته

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

بوسيلة من الوسائل، وتارة يسعى - مختارا مشتاقا متلهفا - إلى مصاحبة الآخرين والاشتراك معهم فى أمر من الأمور.

بل إنه فى اللحظة التى يحب أن يثبت ذاته، لا يكتفى بأن يثبت ذاته بينه وبين نفسه بعمل من الأعمال، إنما يسعى إلى الاجتماع بالآخرين ليثبت ذاته بينهم على نحو من الأنحاء. وصحيح أنه يضطر أحيانا لأن يتنازل عن بعض رغباته الخاصة من أجل وجود الآخرين من حوله. ولكنه يفعل ذلك - أو يتقبله - لقاء إشباع رغبته الأخرى فى الاجتماع مع الآخرين.

كيف يقول عاقل إذاً إن «المجتمع» مفروض على الفرد من خارج كيانه؟

إنما يحدث التنازع بين النزعتين الفردية والجماعية - كما يحدث بين نزعات كثيرة فى كيان الإنسان - حين تزيد «الجرعة» فى إحداهما عن القدر اللازم الذى تتوازن به الأمور، أو حين تثور فى النفس نزعات متضاربة فى وقت واحد.

وزيادة الجرعة إما أمر عارض، يعود بعده الإنسان إلى حالته الطبيعية فلا يعتبر مرضا، وإما شىء دائم أو غالب، فعندئذ يعتبر حالة مرضية.

إن الإنسان فى حالته الطبيعية دائم التقلب بين نزعاته المختلفة، وهذا من الإعجاز فى خلقه فقد خلقه الله متعدد الجوانب، ليقوم بمهمة الخلافة فى الأرض، والإنشاء والتعمير فيها، وهى مهمة ذات مجالات مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وخلقية وفنية وعملية وتقنية.. ولو لم يكن الإنسان متعدد الجوانب لعجز عن القيام بالمهمة الملقاة على عاتقه. ولكن الله لا يكلف نفسا إلا فى حدود وسعها، وقد زود سبحانه الإنسان بكل الأدوات اللازمة له، ومن بينها تعدد النزعات، وتعدد الجوانب، وسهولة الانتقال - أو الانزلاق[1]! - من جانب إلى جانب، ومن وضع إلى وضع، ومن مجال إلى مجال.

ويحدث أحيانا - كما قلنا - أن تتعارض فى نفسه بعض الجوانب وبعض النزعات، إما لتدافعها فى وقت واحد - وكلٌّ منها يريد الساحة خالصة له - وإما لزيادة عارضة أو دائمة فى جرعة من الجرعات.

---

(١) لا نقصد الانزلاق بمعنى الهبوط من أعلى إلى أسفل وإنما نقصد الانتقال السهل من حالة إلى حالة بما يشبه «التزلج» على الجليد!

فأما التدافع العارض، وأما الزيادة العارضة فى الجرعة، فسرعان ما تعود إلى وضعها السوى، فقد زود الله الإنسان بجهاز ضابط، يحقق الاتزان النفسى فى الحالة السوية، وهو من المزايا التى أكسبتها النفخة العلوية من روح الله لقبضة الطين.

أما التدافع الدائم الذى يوقع الحيرة والاضطراب والتردد وعدم الاستقرار، أو الجنوح الدائم إلى جانب واحد على حساب الجانب المقابل[1] فهو مرض نفسى يخرج من دائرة حديثنا هنا، فكلامنا كله متعلق بالفطرة السوية ومكان النوازع المختلفة منها.

وفى المجتمع المتوازن، الذى تحكمه «الثوابت»، فتعيد إليه حالة الاتزان كلما اضطربت موازينه، يأخذ الفرد والمجموع كلٌّ مكانَه بأقل قدر من الصراع والتنازع، وتكون الأداة التى تجمعهما وتربط بينهما هى هذه الثوابت ذاتها، فإنها - فى صورتها الربانية - تمثل التوازن، وتدعو إلى التوازن، وتؤدى إليه.

﴿إنا أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[2].

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[3].

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[4]

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[5].

توازن شامل يشمل كل كيان الإنسان، ويشمل فيما يشمل علاقة الفرد مع غيره من الأفراد، الذين يكوّنون «المجتمع» بالنسبة إليه[6].

وليس فى هذه العجالة مجال للتفصيل، فهذا شأن الكتابة المتخصصة فى علم الاجتماع. ولكنا نقول باختصار إن المنهج الإسلامى يكلف الفرد المسلم تكاليف فى

---

(١) اقرأ إن شئت فصل «خطوط متقابلة» وفصل «الانحراف والشذوذ» من كتاب «دراسات فى النفس الإنسانية».

(٢) سورة الحديد [٢٥].

(٣) سورة البقرة [١٤٣].

(٤) سورة القصص [٧٧].

(٥) سورة الملك [١٥].

(٦) المجتمع فى حقيقته هو مجموع الأفراد مضافا إليه العلاقات التى تحكم اتصال الأفراد بعضهم ببعض، وكل فرد يشعر بفرديته من جهة، ويشعر أن «الآخرين» بالنسبة له هم «المجتمع»، ومن ثم فإن العلاقة فى حقيقتها هى علاقة كل فرد بكل فرد، وإن قضية الفرد والمجتمع هى قضية علاقات دائرية تشمل كل فرد بمفرده، وتشمل فى الوقت ذاته كل الناس فى تشابك لا ينفصم إلا فى حالة الانحراف.

نفسه خاصة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم تكاليف موجهة للآخرين، بدءا بالوالدين والأقربين وانتهاء بالمجتمع كله، بل بالبشرية كلها . . وفى الوقت ذاته يكلف المجتمع تكاليف كالجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى . . فتلتقى التكاليف فى النهاية بين الفرد والمجتمع، وتجمعهما فى اتجاه واحد، متوجه إلى الله، عامل على رضاه . . وهذا هو الذى يجعل الفرد فى المجتمع المسلم لا يحس أن المجتمع ضاغط على كيانه، قاهر لوجوده الفردى، ويجعل المجتمع لا يحس أن الفرد عدو لا يصلح له إلا السحق!

أما الفرد الشاذ الجانح فله علاجه فى المنهج الربانى بحيث لا يقلق أمن المجتمع . علاج يبدأ بالتربية وينتهى بالعقوبة الرادعة إذا أصر على انحرافه .

وأما المجتمع الشاذ الجانح فله علاجه كذلك فى المنهج الربانى، وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتلك مهمة الدعاة، أو الردع، وتلك مهمة أولياء الأمور: «يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن» .

والدارس المسلم فى علم الاجتماع من مهامه أن يتبين تلك العلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع فى الكيان الإنسانى السوى ثم يبينها بدوره للدارسين . وأن يبين لهم كذلك أن الحالة السيئة التى وصلت إليها الأمة الإسلامية، من تفكك الروابط الاجتماعية، وانتشار الأنانية البغيضة، وحرص كل فرد على أن يصل إلى أهدافه - المشروعة وغير المشروعة - على حساب الآخرين، هذا كله لا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام!

(٢)

فى التاريخ

بين علم الاجتماع وعلم التاريخ جدار رقيق، وفى الجدار نوافذ يطل منها كل منهما على الآخر ليطلع على ما عنده! فالدارس فى علم الاجتماع يحتاج أن يطلع على مسارات التاريخ، ليعرف سير الظواهر الاجتماعية وجودا وعدما، وترابطا وتفككا، وثباتا وتغيرا، ودارس التاريخ يحتاج إلى تفهم الظواهر الاجتماعية من أجل تفسير الأحداث التاريخية وتقويمها[1] . . ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

وقد توسعنا - شيئا ما - فى الحديث عن بعض الموضوعات التى ينبغى لدارس الاجتماع المسلم أن يركز عليها، ولا نحتاج لمثل ذلك فى التاريخ، لأن المكتوب فى علم الاجتماع الإسلامى حتى الآن قليل للغاية، بينما توجد كتابات فى «التفسير الإسلامى للتاريخ» وإن كانت الفكرة ماتزال غريبة على الكثيرين من دارسى التاريخ!

والمؤرخ المسلم لن يخترع تاريخا جديدا للبشرية. ولكنه على وجه التأكيد سيجد نفسه مختلفا مع المؤرخين الآخرين فى الأمرين اللذين أشرنا إليهما آنفا، وهما التفسير والتقويم، وهما فى الحقيقة لب دراسة التاريخ. فليس التاريخ مجرد سرد للوقائع التاريخية - وإن كان هذا جزءا أساسيا من عمله - وإنما هو محاولة لربط الأحداث بعضها مع بعض برباط يجعل وجودها وتسلسلها على النحو الذى وقعت به مفهوما عند القارئ - وهذا هو التفسير - ثم يستخرج العبرة المستفادة منها، وهذا هو التقويم.

ومن أجل التفسير والتقويم - اللذين هما لب دراسة التاريخ - فلابد من الرجوع إلى القضية الرئيسية التى نحتاج إلى الرجوع إليها مع كل علم من العلوم الاجتماعية، وهى قضية «الإنسان»: ما هو؟ ما تكوينه؟ ما حدود طاقاته؟ ما غاية وجوده؟ ما موقفه من السنن التى تحكم حياته؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه من داخل نفسه أو من خارجها؟ ما معيار إنجازاته؟

---

(١) المقصود بالتقويم هو تقدير القيمة، وكثير من الكتاب يستخدمون كلمة تقييم بدلا من تقويم والصواب التقويم.

وإذا لم نحدد الإجابة الواضحة على هذه الأسئلة فكيف نفسر التاريخ؟ وكيف نقوّم أحداثه؟ وماذا يبقى منه إلا أحاديث مفككة، قد تصلح لتزجية الفراغ، ولكنها لا تصلح للعبرة ولا تحقق الهدف من دراستها، بينما الله سبحانه وتعالى يوجهنا توجيها واضحا للسياحة التاريخية فى الأرض، واستخراج العبرة من أحداث التاريخ:

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل..﴾[1].

وحين لا نهتدى إلى الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة، أو حين تأخذنا أهواؤنا أو ضغط ظروفنا بعيدا عن الصواب فى إجابتها، فسنخرج ولا شك بنتائج غير التى نحن حريصون على أن نصل إليها حين تستقيم تصوراتنا على النهج الصحيح، وحين نرجع إلى المرجع الصحيح.

وهنا ستقوم نقطة الخلاف الرئيسية بين المؤرخ المسلم وغيره، أوقل إن شئت بين التفسير الإسلامى والتفاسير الجاهلية للتاريخ.

حين يكون تصورنا للإنسان أنه ذلك الحيوان الداروينى المتطور، المتأله فى ذات الوقت بجعل نفسه هو المرجع فيما يأتى وما يدع من الأعمال، وعدم الخضوع لمرجع خارجى عنه، والذى يعيش للدنيا وحدها، ولا يؤمن بالمعاد ولا يعمل له، فكيف يكون معيار إنجازاته؟

سيكون هو هو معيار الحيوان، مع إضافة التطور الذى حدث لذلك الحيوان: الغلبة من جهة والاستمتاع من جهة أخرى، باستخدام العقل المفكر، والأدوات والآلات التى يخترعها ذلك العقل. . ولا زيادة.

وبهذا المعيار المنحرف يكتب المؤرخ الغربى عن «عظمة» الإمبراطورية الرومانية، وغيرها من الإمبراطوريات. .

فعلى أى أسس قامت الإمبراطورية الرومانية؟ على أسس الجبروت الغاشم، والقوة الحربية القاهرة، التى تخضع الآخرين لسلطانها، وتستعبدهم لخدمتها. . فهل هذا معيار «إنسانى»؟ أم إنه قانون الغاب. . القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق؟ مع عمل الاعتبار بطبيعة الحال للفارق بين الحيوان الأصلى والحيوان المتطور: أن الأول يستخدم عضلاته وحدها فى صراع البقاء، أما الثانى فيستخدم عقله وأدواته، فتكون

---

(١) سورة الروم [٤٢].

وسيلته فى استعباد الآخرين وقهرهم هى القوة الحربية، والقوة السياسية، والقوة العلمية، والبزاعة فى استخدام الأدوات . . ولكن الهدف هو ذاته، الذى يصارع من أجله الحيوان!

وقراءة التاريخ على هذا النحو تفسد كل عبرة التاريخ .

إن المؤرخ المسلم لن يغفل - ولا يجوز له أن يغفل - أن الرومان كانوا بارعين فى الحرب، بارعين فى السياسة، بارعين فى التنظيم، عباقرة فى العمارة المادية للأرض . فى إنشاء المدن وتزويدها بالماء وتزيين مبانيها، وإنشاء الطرق وصيانتها، بارعين فى فنون كثيرة أخرى . . ولكنه بحكم تصوره «للإنسان»، وغاية وجوده، سيركز تركيزا شديدا على «القيم» المفقودة فى الإمبراطورية الرومانية - وغيرها من إمبراطوريات التاريخ - التى على رأسها الإيمان بالله واليوم الآخر، وعمادها القيم الأخلاقية الثابتة التى يجب أن تحكم حياة الإنسان .

وبماذا يخرج المؤرخ المسلم فى النهاية حين يركز على هذه القيم وفى الوقت ذاته لا يغفل كل الإنجازات المادية، وكل النجاحات الأرضية التى وقعت للإمبراطورية الرومانية أو غيرها من الإمبراطوريات؟

يخرج بأنها حضارة جاهلية . . وما أكثر الحضارات الجاهلية فى التاريخ!

حضارة من ناحية العمارة المادية للأرض، وجاهلية بالمعنى القرآنى . . الجهل بحقيقة الألوهية، واتباع غير ما أنزل الله[1] .

ولا تعارض على الإطلاق - بحسب السنن الربانية - بين كونها جاهلية وبين التمكين الذى نالته فى الأرض . والقوة الهائلة التى حصّلتها، فذلك وارد - كما بينا من قبل - فى السنن الربانية بكل جلاء .

﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾[2].

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾[3].

---

(١) راجع تفسير مصطلح الجاهلية عند ابن تيمية رحمه الله فى كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» ص ٧٨ - ٧٩ .
(٢) سورة الإسراء [٢٠].
(٣) سورة هود [١٥].

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء..﴾[1] .

ولمعترض أن يقول إن هذا «إسقاط» لمعايير متأخرة على حقب زمنية متقدمة، مما لا يجوز «علميا!» لأنه يفسد البحث العلمي!

ونقول له: إن هذا يكون صحيحا لو كانت هذه المعايير متأخرة حقيقةً، ولم تكن قائمة في الوقت الذي قامت فيه تلك الإمبراطوريات. فكيف إذا كانت قد أنزلت منذ آدم وحواء؟!

﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[2] .

وكيف إذا كانت كل الإمبراطوريات المعروفة تاريخيا قامت بعد الطوفان، ووعت ذاكرتها أحداث الطوفان؟

﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية* لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾[3] .

والحصيلة النهائية للإمبراطورية الرومانية أنها راسبة فى «مادة الرسوب» وإن أخذت النهايات العظمى فى بقية المواد!

والجاهلية الفرعونية كذلك!

إنها جاهلية برعت فى أمور كثيرة وصلت فيها إلى حد العبقرية، كما يوحى بذلك بناء الأهرام، والهندسة الدقيقة التى روعيت فى بنائها، وكذلك عملية التحنيط التى مازال سرها خافيا حتى اليوم، بالإضافة إلى صناعات أخرى كثيرة وفنون متعددة.. وفى الوقت ذاته كان لها سلطان وطيد سواء فى بلادها الأصلية - مصر - أو فى البلاد التى استولت عليها فى فترات التوسع الحربى، الذى كونت فيه إمبراطورية..

ولكنها راسبة فى «مادة الرسوب» التى يعتبر من رسب فيها راسبا ولو نجح فى المواد الأخرى كلها بأعلى الدرجات!

وفى مصر بالذات أرسل نبيان على وجه التأكيد هما يوسف وموسى عليهما السلام، مع احتمال كبير أن يكون قد أرسل قبلهما رسول ممن لم يقصصهم الله فى القرآن.

---

(١) سورة الأنعام [٤٤].

(٢) سورة البقرة [٢٨ - ٢٩].

(٣) سورة الحاقة [١١ - ١٢].

﴿ورسلا قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[1] .

والذى يرجح إرسال ذلك الرسول أن «كتاب الموتى» يحمل وصفا دقيقا لليوم الآخر، وما يجرى فيه من الحساب ووزن الأعمال، والصيرورة إلى الجنة أو النار مما لا يفكر فيه البشر من تلقاء أنفسهم إلا أن يخبرهم بذلك نبى مرسل. كما أن المصريين كانوا يعرفون الملائكة بدليل قول النسوة لما انبهرن بجمال يوسف عليه السلام :

﴿قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾[2] .

وقول فرعون وهو يصد قومه عن الإيمان بموسى عليه السلام : ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾[3] .

ومع إرسال الرسل إليهم فقد ألّهوا الفرعون وعبدوه، وكانوا يقدمون له الصلوات والقرابين، وقبلوا منه قوله : ﴿يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى﴾[4] .

والمؤرخ المسلم وهو يتناول تاريخ الجاهلية الفرعونية سيسلك ذات الطريق الذى يسلكه مع كل الجاهليات الأخرى ذات البراعات، وذات العمارة المادية الفائقة للأرض. يسجل لها كل نجاحاتها فى المواد التى نجحت فيها، وكل انتصاراتها الحربية والسياسية والإدارية والعلمية والعمرانية، لا يبخسها شيئا من ذلك، ثم يسجل لها أنها رسبت فى «مادة الرسوب»، وأنها لذلك تعتبر راسبة رغم كل ما لديها من البراعة، ومن نقط القوة فى كثير من المجالات . .

وليس فى ذلك ظلم ولا افتئات . . ولا افتعال .

إن درس التاريخ هو درس تربية فى ذات الوقت . . بل هو من أعظم الدروس التربوية حين يلتفت إلى جانب العبرة فيه . . فعلى أى شيء نربى أبناءنا؟!

هل نربى أبناءنا - نحن المسلمين - على الانبهار والتمجيد لمن عصى الله وتجبر على الناس، وادعى الألوهية، واتخذ الناس عبيدا له؟! والذين بيّن الله لنا مصيرهم فى الآخرة : أنهم مخلدون فى نار جهنم؟! وخاصة ونحن لا ننفى عنهم كل البراعات التى برعوا فيها، ولا نخفى شيئا مما كانوا ناجحين فيه . .

(١) سورة النساء [١٦٤ - ١٦٥].
(٢) سورة يوسف [٣١].
(٣) سورة الزخرف [٥٣].
(٤) سورة القصص [٣٨].

بل نحن حريصون على إبراز تلك البراعات لأمر تربوى يراد .

إننا نريد أن نبرز السنن الربانية . كيف تعمل فى واقع الأرض . والسنن الربانية تقول أمورا كثيرة مهمة فى التوجيه العقدى والتوجيه التربوى .

تقول إن النجاح فى الحياة الدنيا ليس فى ذاته دليلا على أن أصحابه من الأخيار ، ولا أن منهجهم فى الحياة منهج صحيح . فقد يكونون من أشد الناس شرا وطغيانا وجبروتا ، ويكون نجاحهم فى الحياة الدنيا - وهم فى شرورهم تلك - استدراجًا لهم . ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾[1] .

وهذا التوجيه له أهمية خاصة بالنسبة لنا فى أوضاعنا المعاصرة ، التى ابتلينا فيها بالغزو الفكرى من ناحية ، والانبهار بما عند الغرب من ناحية أخرى . والظن بأنهم ماداموا أقوياء وممكنين فى الأرض ، فلابد أن يكون كل شىء عندهم حسنا ، بما فيه أفكارهم ونظمهم وتصوراتهم وسلوكياتهم . . وهو ظن باطل بطبيعة الحال ، والجاهلية الأوروبية المعاصرة هى وريثة الإمبراطورية الرومانية فى براعاتها الحربية والسياسية والتنظيمية والعمرانية والمادية ، وخلوها فى الوقت ذاته من القيم الأخلاقية ، وانطماس الجانب الروحى فيها . فإذا أبرزنا جاهلية الإمبراطورية الرومانية ، ورسوبها فى مادة الرسوب الرئيسية ، فذلك ييسر لنا إبراز جاهلية الغرب اليوم ، على الرغم من التقدم الجبار الذى أحرزه فى ميادين كثيرة من أمور الحياة الدنيا .

وفى الوقت نفسه تقول السنن الربانية إنه لا ارتباط على الإطلاق بين التقدم المادى والعلمى وبين الفساد الخلقى والانطماس الروحى ، وإن الله يتيح النجاح للمؤمنين ، المتبعين للمنهج الربانى - حين يتخذون الأسباب المناسبة - ويمكن لهم فى الأرض بكل وسائل التمكين ، ويمنحهم فى الوقت ذاته رضوانه فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يفيض عليهم - بالإضافة إلى التمكين المادى - ﴿بركات من السماء والأرض﴾ وطمأنينة فى قلوبهم ، وفى الآخرة جنات الخلد .

وهذا التوجيه له أهميته كذلك بالنسبة لنا فى أوضاعنا الحاضرة ، فى مقاومة ما حل بنا فى نكستنا الحالية من لىّ رقابنا نحو الغرب فى تبعية مريضة لا تميز بين الخير والشر ، ولا بين الضار والنافع ، ظنا من الأجيال التى تربت فى الغزو الفكرى والانبهار بالغرب أن التمسك بالقيم عائق عن النجاح فى الدنيا ، وأنه لا ينجح إلا من خلع دينه وأخلاقه

---

(١) سورة النحل [٢٥].

وتخلص من كل القيم الثابتة فى حياته. وهو ظن باطل بطبيعة الحال. ونحتاج هنا إلى دراسة التاريخ الإسلامى، والتركيز على فترة الصعود فيه، وقد امتدت قرونا متوالية، أطول بكثير من الفترة التى تمكن فيها الغرب، والتى لا تتعدى - حتى الآن - ثلاثة قرون، بينما تؤذن حضارة الغرب الجاهلية بالانهيار.. حسب سنة الله!

وفى دراستنا لتاريخ الإسلام لا نحتاج أن نزور صورة زاهية تخالف الواقع! فالصورة - فى فترة الصعود بصفة خاصة - زاهية فى ذات نفسها بما فيه الكفاية! ولكنا نحتاج إلى إبراز نقاط معينة فيها:

١ - أن الإيمان بالله واليوم الآخر فى أصفى صورة عرفتها البشرية فى تاريخها كله، وأعمق صورة، لم يكن فى حياة الأمة الإسلامية دعوة إلى التعلق بالحياة الأخرى وحدها وإهمال الحياة الدنيا، كما كانت النصرانية المحرفة فى حياة أوروبا، التى ابتدعت الرهبانية:

﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾[1].

إنما كانت - مع الإشراق الروحى، والتمسك بالثوابت الأخلاقية - عملا جادا فى الحياة الدنيا فى جميع الميادين، أنتج حركة علمية فائقة، وحضارة عمرانية شاملة، مع التمكن الحربى والسياسى والاقتصادى، ومع السبق فى ميادين من الخير كثيرة، كنشر التعليم المجانى، وإتاحة العلاج المجانى، وحبس الأوقاف الضخمة لأوجه البر.

٢ - أن حركة الفتح الإسلامى - وهى من أبرز ملامح فترة الصعود - لم تكن جبروتا ظالما يسعى لاستلاب الخيرات من أصحابها، وإفقارهم وإذلالهم وقهرهم، ككل حركات التوسع الجاهلية من أول التاريخ إلى هذه اللحظة، إنما كانت لنشر النور والهدى - بغير إكراه - ورفع الناس من وهدة الشرك والخرافة، وتطهيرهم مما هم غارقون فيه من أرجاس، كما صور ربعى بن عامر رضى الله عنه القضية لرستم قائد الفرس حين سأله: ما الذى جاء بكم إلى بلادنا، فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. وعمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الفاتح الوحيد فى التاريخ الذى قرر أن يبقى ملكية الأرض المفتوحة لأصحابها ولا يمنحها للفاتحين، مستنا بذلك سنة فريدة فى التاريخ تقيد بها

---

(١) سورة الحديد [٢٧].

المسلمون من بعده. وعمر بن الخطاب كذلك هو الفاتح الوحيد فى التاريخ الذى عاتب واليه لأن ابن ذلك الوالى تعدى على أحد أفراد الأرض المفتوحة، فقال لعمرو بن العاص، والى مصر: ياعمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! ثم أوقع القصاص على ابن الوالى من أجل إقامة العدل الربانى.

٣ - أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية النزعة، لا تحجب الخير عن الآخرين، ولا تضن بالعلم والثقافة ووسائل التمدن فتمنع الآخرين من الوصول إليها أو التمكن منها كما تصنع الجاهلية المعاصرة مع المسلمين بصفة خاصة، لتمنعهم من الوصول إلى آفاق عالية فى العلم، وتقتل منهم من برع بصفة خاصة فى علوم الذرة دون أن يتحرج ضميرها من هذا الصنيع! وقد كانت مدارسهم وجامعاتهم مفتوحة لليهود والنصارى يتعلمون فيها كل العلم الذى يرغبون فى تحصيله.. ومن هناك قامت النهضة الأوروبية، بما تعلمته فى مدارس المسلمين.

٤ - أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة إنسانية بالمعنى الآخر، معنى شمولها لكل جوانب الإنسان. جسمه وروحه. عقله ووجدانه. دنياه وآخرته. عمله وعبادته، فى توازن يحقق «إنسانية الإنسان» فلا هو حيوان ولا هو إله، وإنما هو إنسان عابد لله، متبع لمنهج الله.

* * *

ثم إننا لا نحتاج كذلك أن نداري على انحرافات الأمة الإسلامية وانتكاساتها، وخاصة نكستها الحاضرة، ولا أن نتلمس لها المعاذير الكاذبة، فنلقى المسئولية فى ذلك على أحد غير نفسها!

بل إننا حريصون أن ندرس ذلك بأمانة، وصدق، وإخلاص.

أما الأمانة فهى أمر ربانى لهذه الأمة لا يسعها الخروج عن مقتضاه.

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين..﴾[1].

فحين تنحرف الأمة الإسلامية، وتقصر فى أداء التكاليف التى كلفها الله إياها، فلابد أن نسجل ذلك بكل الأمانة التى أمر بها الله. ولكن يكون فى حسابنا عدة نقاط:

---

(١) سورة النساء [١٣٥].

١ - إن المستشرقين - وتلاميذهم - عمدوا إلى تشويه «علمى» منظم هادف بالنسبة للتاريخ الإسلامى لأمر يراد. فركزوا على الخط الأسود فى الصفحة، وحجبوا البياض كله عن العيون! وكان الهدف أمرين فى وقت واحد. الإيحاء بأن التاريخ الإسلامى - «الحقيقى!» - لا يستحق الاعتزاز به ولا الفخر بأمجاده فهو ملىء بالبقع السوداء! ثم الإيحاء بأن الإسلام - فى صورته الزاهية التى تملأ وجدان المسلمين - لم يعش إلا سنوات قليلة لا تستحق أن يُنشأ لها فصل خاص فى تاريخ البشرية (إنما الذى يستحق ذلك هو «الحضارة» الغربية!).

وكلا الإيحاءين مطلوب عند أعداء الإسلام، لأنهم يعلمون أن اعتزاز المسلمين بتاريخهم، وما فيه من أمجاد وعظمات، من أهم أسباب استمرارية الأمة الإسلامية فى الوجود، وعدم انقراضها كما انقرض غيرها من الأمم التى طواها التاريخ. . وأنه من أهم بواعث «الصحوة الإسلامية» الحالية، التى لا يطيقها الغرب، ويسعى إلى قتلها بكل الوسائل والأساليب.

فأما المؤرخ المسلم فينبغى له أن يرسم الصورة كاملة ببياضها وسوادها فى حجمها الحقيقى دون إفراط ولا تفريط. وسيجد حين يفعل ذلك أنه خلال سبعة قرون على الأقل من تاريخ هذه الأمة كان البياض هو الغالب على الصورة، وخلال خمسة قرون أخرى كان السواد يتكاثر فى الصورة ولكنها لا تخلو من البياض كما يزعم المستشرقون وتلاميذهم، وأن القرنين الأخيرين كانا أشد فترات الظلام فى تاريخ الأمة.

٢ - يحتاج المؤرخ المسلم إلى التركيز على انحرافات الأمة فى فترتها الأخيرة، لا بروح الشماتة كما يفعل العلمانيون فى دراساتهم التى تنم عن حقد دفين فى نفوسهم على الإسلام، اكتسبوه من سادتهم الغربيين، ولكن بروح التربية والتعليم. التعليم الذى يوضح مسار السنن الربانية، وأنها لا تحابى أحداً من الخلق لمجرد قوله - أو ظنه - أنه على إيمان صحيح. إنما السنن متعلقة بأعمال الناس وواقعهم لا بأقوالهم ولا ظنونهم الفاسدة. وأن السنن الربانية لم تحاب الأمة الإسلامية حين انحرفت عن الطريق، إنما عاقبهم الله - بسبب تقاعسهم وتواكلهم وإعراضهم - بنزع الاستخلاف والتمكين والتأمين منهم، وهى الأمور التى تكفل بها الله سبحانه للأمة حين تكون على الشرط:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف

الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾[1].

هذا نصيب التعليم فى هذا الشأن. أما نصيب التربية فهو توجيه الأمة إلى أنها لن تخرج من انتكاستها إلا بإزالة الأسباب التى أدت إليها، كما تقول السنن الربانية.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2].

ولن يعيد الله للأمة مجدها، ومكانتها، وقوتها، حتى تعود عودة صادقة إلى الإسلام.

«لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وهو توجيه مهم فى وجه الدعاوى التى تقول إنه لا سبيل لهذه الأمة إلى النهوض إلا بالانسلاخ من الإسلام، أو فى القليل حصره فى داخل الوجدان، ومنعه من الهيمنة على واقع الحياة!

٣ - إن إبراز انحرافات الأمة الإسلامية فى انتكاستها الأخيرة، ومسئوليتها عما حدث لها من الضعف والهوان والذل والضياع الذى تعيشه اليوم، لا ينفى مؤامرة الأعداء ضدها وضد الإسلام.

إن نفى المؤامرة سذاجة مفرطة، بعد ظهور كل العلامات الدالة عليها، بل بعد تصريح ساسة الغرب وكتابهم الذى لا مواربة فيه، بأن عدوهم الأكبر هو الإسلام.

وإن الخطأ «العلمى» الذى يقع فيه الذين يلقون المسئولية كلها على الأعداء، ويخلون أنفسهم من المسئولية، مماثل تماما للخطأ المقابل، الذى يلقى المسئولية كلها على الأمة الإسلامية وينفى تآمر الأعداء على الإسلام.

كلاهما نظرة جزئية عاجزة عن الإحاطة بالقضية من جانبيها. وكلاهما مغالطة للواقع المحسوس.

إن تحميل الأمة الإسلامية مسئولية ما هى فيه اليوم، لا ينفى أن الأعداء يتآمرون منذ قرون للقضاء على الإسلام.

والإقرار بوجود المؤامرة لا ينفى مسئولية الأمة عن حالتها التى وصلت إليها اليوم.

---

(١) سورة النور [٥٥].

(٢) سورة الرعد [١١].

وتصوير هذين الأمرين على أنهما نقيضان لابد من نفى أحدهما لإثبات الآخر، خلل فى الرؤية يقع فيه كثير من الناس بوعى وبغير وعى.

الأمة تتحمل المسئولية كاملة عن تقصيرها وتقاعسها وإعراضها، وقد حذرها رسولها صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا ونيفا من مصيرها الذى صارت إليه اليوم، حين قال عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

وواضح من الحديث الإحاطة بالأمر من طرفيه معا: تقاعس الأمة، وتكالب الأعداء، وذلك من إعجاز الوحى:

﴿وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحى يوحى﴾(٢).

القضية فى حقيقتها التاريخية أن الأعداء يكيدون دائما ولا يكفون عن الكيد:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾(٣).

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾(٤).

ولكن هذا الكيد يصيب - أو لا يصيب - حسب مناعة الأمة الإسلامية تجاهه:

﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾(٥).

الصبر على تكاليف هذا الدين، والصبر على الثبات عليه مهما حاول الأعداء زحزحة الأمة عنه، والتقوى التى لا تنال إلا بطاعة الله فيما نهى وفيما أمر.

وحين تقدم الأمة الصبر والتقوى - بمعناهما القرآنى، الذى يشمل إعداد العدة واتخاذ الأسباب والاستقامة على المنهج الربانى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والأخلاق - لا يجد الأعداء منفذا ينفذون منه إلى قلب الأمة فلا يضر كيدهم

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٢) سورة النجم [٣-٤].
(٣) سورة البقرة [١٢٠].
(٤) سورة البقرة [٢١٧].
(٥) سورة آل عمران [١٢٠].

شيئا. وحين تعجز الأمة وتتراجع عن الصبر المطلوب والتقوى، ينفذ الكيد، ويصيب الأمة فى الأعماق . .

حقيقة شاملة، لا تناقض بين طرفيها. ولا نحتاج أن ننفى طرفا منها لكى نثبت الآخر!

والحقيقة المشهودة أن الأمة ظلت تتراجع خلال القرون الأخيرة عن حقيقة دينها، وعن تكاليفه فى النفس والمال والفكر والخلق وكل مجالات الحياة، ففتح هذا شهية الأعداء، المتربصين أبدا، الكائدين أبدا، الذين لا يكفون عن الكيد أبدا، فتجمعوا، وأجمعوا أمرهم على الإجهاز على هذا الدين فى أنسب الأوقات - فى تصورهم - للقضاء الأخير على الإسلام.

وهذا ما ينبغى للمؤرخ المسلم أن يصحح فيه مفاهيم الناس، سواء الذين يلقون اللوم كله على الأعداء ويهربون من مسئوليتهم، أو الذين يبرئون الأعداء من التآمر ليلقوا المسئولية على الأمة المسلمة حقداً عليها وشماتة فيها.

وتصحيح المفاهيم فى هذا الشأن واجب «علمى» فى الوقت الذى هو واجب دينى عقدى. ولا تناقض فى الإسلام ولا تنافر بين العلم والدين.

٤ - إنه على الرغم من كل ما وقع من الأمة من الانحراف، وكل ما قام به الأعداء من الكيد، فقد حدثت الصحوة. . ولهذا الأمر ولا شك دلالته الواضحة.

دلالته أن هذه الأمة - أمة العقيدة - لا تنطبق عليها سنة الفناء بالشيخوخة - إن كانت هذه سنّة - وأن فيها من الحيوية الكامنة ما يبعثها من جديد بعد أن تكون قد أشرفت على الهلاك.

وهناك أكثر من تفسير يمكن أن يفسر هذه الظاهرة.

فحفظ الله لكتابه المنزل، ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واحد من الأسباب التى حفظت هذه الأمة من الفناء خلال مسيرتها التاريخية الطويلة على الرغم من كل الكوارث التى أصابتها على يد أعدائها، وعلى الرغم من كل التقصير الذى وقع منها. . إذ أن المنبع الذى تستقى منه الأمة وجودها، موجود دائما، فى المتناول لمن يريد.

وكون هذا الدين هو دين الفطرة الذى يلبى كل احتياجات الفطرة السوية،

ويتجاوب مع النمو السوى فى حياة الإنسان، لا يعوقه ولا يعرقله ولا يكبته، واحد من الأسباب.

وكون هذا الدين ليس نظريات فى الكتب ولا شعارات مرفوعة فى الفضاء، وإنما هو واقع عملى، ثم هو واقع عاشته الأمة بالفعل عدة قرون، ووعت أحداثه ذاكرتها التاريخية المتجددة . . واحد من الأسباب.

وفوق ذلك كله، وقبل ذلك كله، وعد الله الدائم أن يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها:

﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾[1].

ومن ثم فإن الصحوة تمثل انبعاثة ذاتية لا تحتاج إلى أسباب خارجية لإحداثها، وإن كانت الأسباب الخارجيه قد تزيد فى تدفقها أو تؤثر فى مسارها.

والمؤرخ المسلم قبل هذا وبعد هذا مؤرخ . . عليه أن يبذل الجهد فى تحرير الوقائع، وتمحيص الروايات، وتحرى الدقة العلمية فى الدراسة، والتجرد من الهوى ما وسعه الجهد.

وعليه فوق ذلك ألا يفاجأ - ولا يوهن من عزمه - أن يجد نفسه أحيانا وحيدا فى اللجة يسبح ضد التيار!

(١) سورة الأحزاب [٣٨].

(٣)
في الاقتصـــــاد

ليس من شأني في هذه العجالة ولا في غيرها أن أتكلم في علم الاقتصاد ، فهذا شأن المتخصصين في ذلك العلم ، ولكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى بعض الملاحظات :

تبدأ الدراسة المنقولة عن الغرب في علم الاقتصاد بتعريف « المشكلة الاقتصادية » ويقال للطلاب إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة!

وقد عجبت حين علمت ذلك ، وعلمت أن هذا يقال في معاهدنا « الإسلامية » ! يقوله أساتذة مسلمون ، ويتلقاه عنهم طلاب مسلمون ، ويأخذون هذا الكلام قضية مسلمة ، ويبنون عليها دراستهم في علم الاقتصاد !

وكان موضع عجبي أن هؤلاء جميعا يقرءون ـ أو المفروض فيهم أن يقرءوا ـ قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ [1] .

الله يقول إنه بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ونحن نقول إن المشكلة الاقتصادية هي مشكلة الندرة ! أي قلة الموجود بالنسبة للمطلوب!

كلا ! إن المشكلة هي في السلوك البشري المخالف لمنهج الله ! فحين يأخذ أناس أكثر من حقهم الشرعي ، باستخدام وسائل لم يأذن بها الله ، ثم لا يؤدون حق المال الذي فرضه الله عليهم في أموالهم . . تنشأ المشكلة!

ومرة أخرى حين أخذ أنصار نظرية « مالتس » ينذرون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ويقولون إن الأرض لن تكفي سكانها بسبب الانفجار السكاني « الرهيب ! » عجبت لمن يردد هذا الكلام في عالمنا الإسلامي كأنه حقيقة !

---

(١) سورة فصلت [٩ ـ ١٠].

ثم وقع فى يدى كتاب ألفه أحد اللوردات الإنجليز بعنوان « معضلة الرجل الأبيض The White Man's Dilemma » ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦١ م ثم غُيِّر الكلام فى الطبعات التالية (لأمر قد نفهم سره !) وقال المؤلف فى طبعته الأولى كلاما ثمينا جيدا (يبدو أنه عوتب من أجله ونصح بتغييره) قرر فيه أن هذه الصيحة الخبيثة التى تقول إن الأرض لن تكفى سكانها سنة كذا ، عارية عن الصحة من الوجهة العلمية ، وإن وراءها قصدا خبيثا ، لأمر يراد !

قال : إن نسل الرجل الملون يتزايد باستمرار ، نتيجة تقدم الرعاية الصحية فى السنوات الأخيرة ، الذى جعل نسبة الوفيات تقل عن ذى قبل ، بينما الخصوبة باقية على حالها ، فيكون من نتيجة ذلك أن يولد فيهم مواليد كثيرون وتقل الوفيات نتيجة الرعاية الصحية ، فيتزايد عددهم باستمرار ، بينما نسل الرجل الأبيض يتناقص باستمرار ، نتيجة عمل المرأة ، وعدم رغبتها فى كثرة النسل ، لكى لا يعطلها الأولاد عن العمل من جهة ، ولكى تحافظ على رشاقتها من جهة أخرى (هذا كلام الرجل !) ، ونتيجة تأخر سن الزواج عندهم لأسباب اقتصادية ورغبة فى تطويل فترة المتاع الحر ! وتكون النتيجة النهائية أن نسل الرجل الملون يتفوق فى العدد على نسل الرجل الأبيض .

ثم قال الرجل فى صراحة يحسد عليها (ولعلها هى التى عوتب من أجلها فغيّر ما غير فى الطبعات التالية) إن الرجل الأبيض يستمتع الآن بالرفاهية والسلطان بما سلب من أقوات الرجل الملون ، ولكنه يخشى إذا استمر تزايد النسل عند الرجل الملون أن يتنبه هذا الأخير لحقيقة وضع الرجل الأبيض منه ، وأنه مغتصب لأقواته ، فيثور عليه ويسعى إلى استرداد أقواته المسلوبة ، وعندئذ يفقد الرجل الأبيض رفاهيته التى تعود أن يعيش فيها ، ومن أجل ذلك يوحى إلى الرجل الملون باستمرار أن يحدد نسله ، ويوهمه أن أقوات الأرض لن تكفى فى المستقبل إذا استمر نسله فى التزايد بمعدله الحالى !

وقال الرجل إن مساحات كبيرة من الأرض قابلة للاستغلال لم تستغل بعد ، وإن فى البحار من المواد الغذائية ما لم يستغل عشره حتى اليوم ، وإن الأرض بيابسها ورطبها تكفى لإعالة سكان الأرض ولو بلغوا عدة أضعاف بالنسبة لعددهم اليوم !

كلام ثمين كما ترى . . يفضح هذه الدعوى التى يتبناها « الاقتصاديون » فى بلادنا بغير وعى ، ويطالبون بتحديد النسل خوفا من عدم كفاية الأقوات فى المستقبل !

وهذه كالأولى تدل على عدم أصالتنا فى تناول علوم الاقتصاد ، حين نتبع ما يقوله الغرب بالحق وبالباطل ، ونحصر تفكيرنا فيما يريدوننا أن نفكر فيه ، وعلى النحو الذى يرويدننا أن نفكر به !

* * *

كيف تكون أصالتنا إن اتجهنا إلى التأصيل الإسلامى فى علم الاقتصاد ؟!

لن أخوض فى « تخصصات » علم الاقتصاد . . وأترك هذا للمختصين . ولكنى أقول على هامش الموضوع إنه يجب علينا فى دراستنا أن نعدل طريقة التناول ، فنقول ـ ونحن مستيقنون ـ إن جاهلية الناس ، أى عدم اتباعهم لما أنزل الله هى السبب الرئيسى فى مشاكل الاقتصاد فى الأرض .

لقد كان الإقطاع نظاما جاهليا ، والرأسمالية كذلك (ونوفر الكلام عن الشيوعية فقد سقطت التجربة ولم تعد فى حاجة إلى تفنيد) .

فأما الإقطاع فقد باركته الكنيسة الأوربية ولم تعترض عليه ، مع أن واجبها كان يقتضى أن تحاربه وتقضى عليه ، ولكنها هى نفسها كانت ذات إقطاعيات شاسعة فلم يكن منطقيا أن تقف ضد مصالحها الخاصة ! ولأنها من جهة أخرى لم تسع فى تاريخها كله إلى تحكيم شرع الله ، إنما تركت القانون الرومانى ـ بكل مظالمه ـ يحكم الأرض ، واكتفت هى بالسيطرة والسلطان!

وأما الرأسمالية فقد نبتت وقد فقدت الكنيسة كثيرا من سلطانها ، وفقد الدين مكانته فى نفوس الناس ، وقالت الرأسمالية ـ اليهودية أساسا ـ إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة ، ولا علاقة له بالدين ، ولا علاقة له بالأخلاق ، وصدقها الناس ـ أو خضعوا لسلطانها الطاغى دون مقاومة تذكر ـ فسيطرت على الاقتصاد الغربى دون منازع ، حتى جاءت الشيوعية فتصارعا فترة من الزمن ، ثم استعادت الرأسمالية سيطرتها بعد اندحار الشيوعية وأصبحت هى النظام العالمى فى مجال الاقتصاد .

وحرصت الجاهلية المعاصرة حرصا شديدا على إبعاد القضية كلها عن الدين ، والنظرة الدينية ، والقيم الدينية ، من طريقين اثنين : أحدهما الادعاء بأن الدين لا علاقة له بالاقتصاد ولا بغيره من أمور الحياة الدنيا ـ أى الأمور « العلمانية » ـ وإنما هذه لها قوانينها الخاصة التى يشرف عليها العلمانيون ، الذين لا علاقة لهم بالدين . والثانى إبعاد الناس فى واقع حياتهم عن الدين وتأثيره ، فلايعودون يقيسون شيئا بمقياس الدين!

ولكن الباحث المسلم فى علم الاقتصاد يجب أن يتبين نقطة الخلل الرئيسية فى الاقتصاد الغربى ، وهى أنه اتباع لغير ما أنزل الله .

فلم يقل سبحانه وتعالى فى أى كتاب من كتبه المنزلة إنه يجوز لأحد حين يملك الأرض (وشرط الملك ألا يكون بوسيلة محرمة) أن يكون مالكا للأرض ومن عليها من البشر فى الوقت ذاته ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، وأن يكون صاحب الأرض هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية فى ذات الوقت ، كما كان الإقطاع فى أوربا .

وعلى ذلك فالإقطاع حرام فى دين الله الحق ، لا يستند لسلطان شرعى ، ولو باركته الكنيسة الأوربية ودافعت عنه !

أما الرأسمالية فعلى أى شىء تعتمد فى مسلكها الذى يؤدى إلى تضخمها وطغيانها؟

تعتمد على الربا وهو محرم فى دين الله .

وتعتمد على عدم توفية الأجير أجره وهو محرم فى دين الله .

وتعتمد على تقديم منتجات جديدة باستمرار تبدأ باعتبارها كماليات ، ثم تتحول بإغراء الإعلان إلى ضروريات ، وكثير منها أقرب إلى الترف منه إلى الضرورة الحقيقية ، والترف محرم فى دين الله .

وتعتمد أخيرا على تلهية الناس بالحياة الدنيا وزينتها ، وشغلهم عن الله والآخرة ، لكى يظلوا يستهلكون ما تنتجه الرأسمالية من المنتجات ، ولا يشعرون بالشبع ، ولا يزهدون فى الشراء . . واستحباب الحياة الدنيا على الآخرة محرم فى دين الله .

بهذه الوسائل المحرمة تتضخم الرأسمالية ، وأشدها حرمة هو الربا ، الذى آذن الله مرتكبيه بالحرب :

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾ [1] .

والذى قال فيه بعض خبراء الغرب أنفسهم إن نتيجته الحتمية هى تزايد الثروة فى يد فئة يتناقص عددها على الدوام ، وتزايد الفقر فى فئة يتزايد عددها على الدوام [2] .

(١) سورة البقرة [٢٧٨-٢٧٩] .

(٢) انظر تقرير الخبير الألمانى جوزيف شاخت عن الربا.

وهكذا يتبين للباحث المسلم أن كل ما يقع من الظلم الاقتصادى فى الأرض منشؤه اتباع غير ما أنزل الله ، وأن الظلم الاقتصادى يصاحبه دائما ظلم سياسى وظلم اجتماعى وانحراف فكرى ، يلبس أقنعة شتى ولكنه دائمًا ظلم ، وأن هذا الظلم المتشعب ، لا علاج له إلا بإزالة أسبابه . . أى باتباع ما أنزل الله .

* * *

وقد وضع الله نظاما لحكم حياة الناس فى الأرض ، يقوم على العدل بدلا من الظلم ، ويقوم على جعل الناس شركاء فى الخير العام ، فيحمل القادرون غير القادرين ، ويقوم على توزيع المغارم والمغانم بالقسط .

نظام يقوم فى خطوطه العريضة على أن المال مال الله ، وأن البشر مستخلفون فيه بحسب شروط المالك سبحانه وتعالى لا بحسب أهوائهم ، ولا بحسب أطماعهم التى لا تشبع :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعًا ، إذا مسه الشر جزوعًا * وإذا مسه الخير منوعًا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾ (١) .

وأن الكسب والتملك مباح من حيث المبدأ ولكنه مقيد بأن يكون حلالا فى مأخذه ، حلالا فى استخدامه ، حلالا فى إنفاقه . فلا يكون من غصب أو سرقة أو غش أو احتكار أو ربا . ولا يستخدم فى الضرر ولا الإفساد ، ولا ينفق فى سرف ولا ترف ولا مخيلة ، ولا يكنز ، وتخرج زكاته فتجمع فى بيت المال لتصرف فى مصارف الزكاة .

وفى داخل هذه الحدود العامة ـ الثابتة ـ عشرات من الوسائل ومئات ليس من شأننا الحديث عنها فى هذه العجالة ، إنما يتناولها الفقهاء والدارسون بالشرح والتفصيل .

ولا نقول مع ذلك إن المجتمع الإسلامى الصحيح لا يحدث فيه شىء من الظلم على الإطلاق ! فلن يكون الناس فى أى وقت ملائكة لا يخطئون ولا يعصون ولا يتعثرون :

« كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٢)

ولكن فى المجتمع المسلم الملتزم توجد دائما أداة تصلح ما يفسد الناس فى الأرض ، هى الاحتكام إلى شريعة الله :

---

(١) سورة المعارج [١٩ ـ ٢٥] .　　(٢) أخرجه الشيخان .

﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (1) .

ولا نتصور كذلك أن الحياة فى المجتمع المسلم الملتزم خالية من المعاناة ، فالمعاناة قدر مقدور على البشر في الحياة الدنيا . ولكنْ هناك فرق بين معاناة يصحبها الظلم ، ومعاناة سببها طبيعة الكدح البشرى ولكن ثمرتها بركة وطمأنينة فى الحياة الدنيا ، ورضوان من الله فى الآخرة .

* * *

المدخل إلى علم الاقتصاد الإسلامى هو مدخل تربوى سلوكى ، يضع قواعد السلوك الصحيح ويشارك فى التربية عليها . .

يجب ابتداء أن ينتفى من حس الدارس المسلم فى علم الاقتصاد أن الاقتصاد له قوانينه الخاصة التى لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ! فقد ابتدعت الجاهلية المعاصرة هذه الدعوى لتستر وراءها جرائمها التى ترتكبها باسم « قوانين الاقتصاد » !

إن النشاط الاقتصادى جزء من النشاط البشرى . والنشاط البشرى كله يجب أن يكون لله ، أى ملتزما بما أنزل الله :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت ﴾ (2) .

ومن أجل أن يتم ذلك لابد من تربية الناس على العقيدة الصحيحة ، وعلى أخلاقيات لا إله إلا الله ، ولا بد أن يكون التحاكم فى كل الأمور إلى شريعة الله ، وأن تكون مناهج التعليم ووسائل الإعلام ملتزمة بما أنزل الله ، معاونة فى تثبيت القيم الإيمانية ، لا معارضة لها ولا معادية لمقتضياتها . . وهذا كله داخل فى صميم التنمية الاقتصادية ، لا ينفصل عنها لا فى التصور ولا فى السلوك ، ولا تتم التنمية الاقتصادية بدونه .

لابد أن يرفع الناس ـ بالتربية ـ إلى مستوى الإنسانية ، ولا يتركوا لجواذب الأرض تهبط بهم إلى دنس الشهوات ، لأن هذا ـ فوق كونه معصية لله ـ فهو مفسد للتنمية الاقتصادية ، يبدد الطاقة فى الهدم لا فى البناء .

---

(1) سورة النساء [29] . (2) سورة الأنعام [162 ـ 163] .

لابد أن تكون الآخرة حاضرة فى قلوب الناس ومشاعرهم ، لا خيالا بعيدا يخايل من بعيد ، ولا تكاد تثبت له صورة فى الوجدان .

لابد أن يتربى الناس على التكافل الذى أمر به الله .

لابد أن يتربى الناس على العمل والإنتاج والإتقان ـ مع الاقتصاد فى الاستهلاك ـ ليتوافر للدولة المسلمة ما تنفذ به أمر الله : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[1] .

لابد أن تكون هناك أسرة مسلمة متماسكة تكون بمثابة المحضن الذى يربى الأجيال على خصال الإسلام .

وبعد ذلك ـ لا قبله ـ ندخل فى خصوصيات علم الاقتصاد ، فتكون النفوس مهيأة لتقبل الاقتصاد الإسلامى ، مطبقة له فى عالم الواقع . .

ويجب أن يعلم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أنه لا يوجد « اقتصاد » فى الأرض كلها ينقذهم مما هم فيه ، مما يسمى « الحلول الاقتصادية » أى الإجراءات الاقتصادية البحتة ، بغير إصلاح لنفوس الناس وعقائدهم !

إنما الذى ينقذهم هو هذا المنهج المتكامل الذى ذكرناه . . أى العودة إلى الإسلام الحقيقى ، عقيدة وشريعة وأخلاقا وممارسة فى عالم الواقع ، وإن الذى تكفل بإنقاذهم مما هم فيه إن اتبعوا ذلك المنهج هو رب العالمين نفسه لا أحد من الأحزاب ولا الجماعات ، وإنما البشر أدوات لتنفيذ وعد الله :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ [2] .

---

(١) سورة الأنفال [٦٠] .

(٢) سورة النور [٥٥] .

(٤)
في التربيـــــة

حينما نكتب عن « التربية الإسلامية » فمن الطبيعى أن نركز على العقيدة الإسلامية ، وعلى الوجدان الدينى باعتبار أنه الأساس الذى تقوم عليه التربية الإسلامية . وعندئذ يظن العلمانيون ، بل بعض المسلمين أنفسهم ، أن التربية الإسلامية محصورة فى هذا الجانب ، وأنها توازى ما يسمى « التربية الدينية » فى كتابات الغربيين التربوية . ومن ثم ينظرون إليها على أنها جزء من التربية المطلوبة (لمن أراد أن يطلبها !) ولكنها ليست هى التربية المنشودة ! وإنما هذه يبحث عنها فى مصادر أخرى غير الإسلام!

وابتداءً لابد من إزالة هذا الوهم ، المتأثر بصورة « الدين » فى الغرب ، والواقع الذى يعيشه الغرب بالنسبة للدين . فالدين هناك « علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة» . علاقة تسكن فى وجدان صاحبها ، وتؤثر فى بعض سلوكياته الشخصية ، ولكنها لا تتدخل فى حركة الحياة الواقعية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، التى يشترك فيها صاحب الدين مع المتخلى عن الدين مع المتمرد على الدين ، كلهم بطريقة واحدة ، وبنسب متساوية ! فيصبح الدين مزاجا شخصيا لا يؤثر فى واقع الحياة العملى !

هذه هى الصورة « العلمانية » للدين ، وهى السائدة فى حياة الغرب ، والذى يَسَّرَ من سريانها هناك المفهوم الكنسى ذاته للدين ، الذى قال « أد ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! » وهو الشعار الذى رفعته النصرانية فى أيام استضعافها ، ولم تغيره حتى فى أوج سلطانها ، الذى امتد فى أوربا ثمانية قرون على الأقل ، من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثانى عشر ، فقد كان سلطان الكنيسة متمثلا فى إخضاع كل الناس - حاكمين ومحكومين - لأهواء رجال الدين وليس للدين ! ليس للشريعة المنزلة على عيسى عليه السلام ! فلما قامت العلمانية فى أوربا ، كان هدفها إقصاء نفوذ رجال الدين عن السياسة (ثم عن الحياة العملية كلها) وليس إقصاء « الدين »، الذى كان غائبا عن

الهيمنة على السياسة (وعلى الحياة العملية كلها) منذ دخلت أوربا فى مسيحية بولس ، وليس فى دين عيسى عليه السلام [1]!

هذا المفهوم الكنسى للدين ، الذى يَسَّر للعلمانية فى أوربا أن تفصله عن واقع الحياة ، ليس هو حقيقة الدين المنزلة من عند الله . . وليس هو الإسلام على أية حال !

الدين فى الإسلام هو الحياة! الحياة كلها بحذافيرها ، بكل جوانبها وكل مجالاتها!

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت.. ﴾ [2] .

ومن ثم لا يمكن فصله عن الحياة ، إلا إذا قلنا إنه يمكن فصل الحياة عن الحياة !

إنه العقيدة المستقرة فى القلب ، والوجدان الذى يحرك الشعور ، والعبادات التى توجه لله سبحانه وتعالى وحده بلا شريك ، والشريعة التى تحكم السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والسلوك الفردى والاجتماعى ، وتحدد لكل شىء فى حياة الإنسان حدودا لا يتعداها (وأحيانا لا يقربها إذا كانت متعلقة بأمور شديدة الجذب) :

﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ [3] .

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ [4] .

وهوكذلك عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [5] .

وفى كل مجال من مجالات الحياة له تشريع أو توجيه بحيث لا يخرج شىء على الإطلاق عن أحوال الشريعة الخمسة : إما حلال وإما حرام وإما مباح وإما مستحب وإما مكروه .

ومن ثم فإن « التربية الإسلامية » لا تشمل العقيدة وحدها ، ولا الوجدان الدينى وحده ، ولا الشعائر التعبدية وحدها ، فهذه كلها جوانب من الإسلام ، وليست هى «الإسلام » الذى قال الله عنه :

---

(١) راجع فصل « أحوال أوربا » فى أول الكتاب .

(٢) سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣] .

(٣) سورة البقرة [٢٢٩] .

(٤) سورة البقرة [١٨٧] .

(٥) سورة هود [٦١] .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [1] .

وقال عنه :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [2]

* * *

التربية الإسلامية هى التى ربى بها رسول الله ﷺ أصحابه ، وتربى عليها التابعون وتابعوهم ، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم خير أمة أخرجت للناس :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [3] .

فهل كانت تربية الرسول ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم محصورة فى العقيدة أو الوجدان الدينى أو الشعائر التعبدية ؟ وهل خرّجت هذه التربية مجرد عبّاد لله بالمعنى الضيق للعبادة . . بمعنى آخر : هل اقتصرت التربية النبوية على الجانب الروحى وحده؟ أم كان الذين رباهم ﷺ عمالقة فى كل اتجاه : عمالقة فى سياسة الحكم ، عمالقة فى الحرب ، عمالقة فى العلم ، عمالقة فى الأخلاق ، عمالقة فى كل شىء من شئون الحياة؟ وكانوا هم ، وذراريهم الذين تربوا على أيديهم من بعدهم ، سادة العالم وقادته ورواده وهداته إلى النور؟

هذا المعنى الواضح للتربية الإسلامية لم يعد واضحا فى أذهان الكثيرين اليوم . . لعدة أسباب .

أولها : المفهوم الغربى « للدين » ، الذى يزحف على حياتنا عن طريق الغزو الفكرى ، وينظر الناس إلى الإسلام من خلاله .

وثانيها : الواقع السيئ الذى يعيشه المسلمون اليوم ، والذى يوشك أن تختفى فيه آثار التربية الإسلامية ، والذى يجعل الأمة التى تحمل اسم الإسلام - إلا ما رحم ربك - أسوأ نموذج للأمم ، ضعفا وتخاذلا وتفرقا وتخلفا وتنابذا وسوء خلق . . فتبدو التربية الإسلامية الحقة إلى جانب هذا الواقع السيئ خيالات لا وجود لها فى الواقع ، وشعارات معلقة فى الفراغ .

---

(١) سورة آل عمران [١٩] . (٢) سورة المائدة [٣] .
(٣) سورة آل عمران [١١٠] .

يضاف إلى ذلك أن الجماعات الإسلامية التى انبثقت عن الصحوة الأخيرة لم تستوعب هى نفسها كل معانى التربية الإسلامية ، لتعرضها واقعا يقنع الناس بحقيقة هذه التربية ، بل زادت فتصارعت فيما بينها وتنابذت ، فأعطت المثل السيئ ، الذى يزيد الناس بعداً عن تصور الحقيقة .

* * *

ولكن تظل الحقيقة مع ذلك هى الحقيقة !

تظل هى الحقيقة لأنها عاشت بالفعل ، فى عالم الواقع ، عدة قرون .

عاشت بالقدر الذى يثبت لها وجودا تاريخيا ، ويثبت لها كيانا واضحا وهيكلا صلبا ، لا صورة هلامية ، ولا شيئا رجراجا يذهب ويجىء . .

وإذا كانت الأمة قد انحرفت عن الإسلام فعليها وزرها ، وهى تتحمل تبعتها ، وتتحمل نتائج انحرافها ، ولكن يظل الإسلام هو الإسلام كما أنزله الله سبحانه وتعالى لا يتغير ، وتظل أصول التربية الإسلامية قائمة كما هى ـ وكما طبقت بالفعل فترة من الزمن غير قصيرة ـ لأنها محفوظة فى الكتاب المحفوظ ، وفى تعاليم الرسول المربى ﷺ ، المحفوظة هى الأخرى بحفظ الله .

وواجبنا أن نتعرف عليها ، ونعيد لها الحياة .

* * *

منهج التربية الإسلامية منهج كامل يشمل كل جوانب التربية ، وكل جوانب الحياة .

ومن عجب أن ننخدع بقوة الغرب المادية ـ أو قل : ننبهر بها ـ فنتوهم أن التربية الحقة هى ما يقدمة الغرب ، وأننا ينبغى أن نأخذ علوم التربية من هناك .

وأما أنهم بارعون فى بعض جوانب التربية فأمر لا شك فيه .

ولا شك أيضا فى أنهم أجروا من التجارب التربوية الجادة الدقيقة المؤسسة على قواعد البحث العلمى الصحيح ما أعطاهم حصيلة عملية يستطيعون أن يستندوا إليها وهم يقدمون نظرياتهم التربوية ، فلا تكون مجرد رؤية نظرية ، ولكنها رؤية تستند إلى واقع تجريبى ، يبلورها ، ويحدد صورتها ، ويجعلها جاهزة للتطبيق .

ولا شك أيضا أنهم يتابعون أبحاثهم ، فلا يقعدهم الوصول إلى نتائج معينة عن إجراء تجارب جديدة ، وطرق أبواب جديدة من البحث .

وكل تلك إيجابيات يجب أن نستفيد منها ، لأنها تنقصنا ، ولأننا فى حاجة شديدة إليها.

ولكن يجب فى الوقت ذاته أن ننظر فى الحصيلة النهائية لمناهج التربية عندهم ، لنعرف ماذا نأخذ منها وماذا ندع ، ولا يأخذنا الانبهار فنقول لأنفسنا : يجب أن نأخذ كل شىء ، ولا ندع أى شىء!

الحصيلة هى إنسان ذو شخصية فردية بارزة ، واثقة من نفسها ، إيجابية ، لا ترهب التجربة ، ذات نزوع عملى ، وذات قدرات نامية ، متحملة لمسئوليتها ، منظمة ، متقبلة للنظام ، قادرة على التعامل مع الآخرين بقدر عال من التهذيب ، وبأقل قدر من الاحتكاك ، وقادرة على بذل الجهد ، وعلى المثابرة فى بذل الجهد حتى تتحقق الغاية . .

وفى الوقت ذاته إنسان عالمه هو الحياة الدنيا ، قلما يؤمن بالآخرة أو قلما يفكر فيها ، شديد الرغبة فى الاستمتاع بكل لحظة تمر به ، لا يبالى فى استمتاعه بحلال أو حرام ، بل هو يستحل كل متاع يخطر فى باله ، ويسعى إلى تحقيقه ، شاذا أو سويا ، ويرى أن ذلك من حقه الطبيعى ، وداخل فى حريته الشخصية ما دام لا يؤذى الأفراد الآخرين ، الذين لهم مثل حقوقه ، ولهم أن يفعلوا بأنفسهم ما شاءوا.

وفى الوقت ذاته كذلك إنسان معرض لكثير من حالات القلق والأمراض العصبية والنفسية ، وإدمان الخمر وإدمان المخدرات . . وليست الجريمة منه ببعيد!

هل يجوز لنا ـ حين نرى إيجابيات التربية الغربية ، وهى كثيرة ـ أن نغمض أعيننا عن سلبياتها ، وهى كثيرة كذلك ؟ وحين تبهرنا الإيجابيات فنغمض أعيننا عن السلبيات ، هل يكون موقفنا سليما ، وهل نكون أصلاء ؟ أم نكون أتباعا مقلدين . . فينتج من تبعيتنا فى عالم الواقع أن نأخذ السلبيات لأنها سهلة الأخذ ، لا تحتاج إلى أكثر من الانفلات من الضوابط ، ونعجز عن أخذ الإيجابيات ، لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، ونحن لم نتعود عليه ؟!

ذلك حالنا مع الغرب فى واقعنا المعاصر!

* * *

ما نقطة الخلل فى مناهج التربية الغربية ؟ .

هى النظرة إلى « الإنسان » . .

الحيوان المتأله ، الذى يعيش لدنياه ، ولا يؤمن بآخرته .

إنه بارع جدا فى العمارة المادية للأرض ، لأنها همه الذى يعيش من أجله . وبراعته تلك وروعة إنجازاته فيها هى التى تجعله يتأله ، لأنه يقول كما قال قارون من قبل ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ [1] وفى الوقت ذاته هو منحط إلى أسفل سافلين فى شهواته الدنسة التى لا تشبع ، لأنه ليس من طبيعتها أن تشبع حين يفتح لها الباب على مصراعيه ، بل من طبيعتها أن تزداد نهما وضراوة حتى تردى صاحبها . . ثم هو فى النهاية إنسان غير سعيد بواقعه الذى يعيشه ، فيسعى إلى الهروب منه فى الخمر والمخدرات ، أو الصياح والضجيج ، أو الرقص المخبول . . أو الجريمة !

أوكذلك نريد أن نربى أبناءنا وبناتنا ؟!

يقول الحالمون : نأخذ إيجابياتهم ونترك عيوبهم وانحرافاتهم . .

حلم جميل ما باله لم يتحقق خلال قرنين من الزمان جرى فيهما العالم الإسلامى لاهثا وراء الغرب « لينهل » من منابعه ؟!

الإجابة ـ كما أسلفنا قبل قليل ـ أننا جابهنا الغرب وقد فقدنا أصالتنا ، فلم يعد فى وسعنا أن نأخذ إلا السلبيات التى لا تحتاج إلى جهد ، وعجزنا عن أخذ الإيجابيات لأنها تحتاج إلى بذل الجهد ، والمثابرة عليه . . وهو أمر لا يطيقه إلا الأصلاء !

لكى نستفيد من إيجابيات التربية عند الغرب يجب أن نكون أولا مسلمين !! يجب أن نعود إلى أصالتنا ، وأن نسترد ذاتيتنا التى فقدناها فى فترة الانبهار ، فتصبح عندنا العزيمة ، وتصبح عندنا البصيرة ، التى نأخذ بها ما ينفع ، وندع ما يضر ، والتى نتابع بها بذل الجهد حتى نصل إلى تحقيق المطلوب !

وهكذا كانت تفعل الأجيال الأولى من المسلمين تجاه ما تجد نفسها محتاجة إليه من الوسائل والأدوات ، مما ليس عندها ، ومما هو موجود لدى الجاهليات من حولها فى فارس وبيزنطة .

---

(١) سورة القصص [٧٨] .

كانت تأخذ فى عزة المؤمن الواثق أنه بإيمانه هو الأعلى ، وأن لديه فى المنهج الربانى كل ما يحتاج إليه من العقائد والمبادئ والقيم والأصول . . إنما يستعير من غيره أدوات ووسائل ، ويطوعها لما يريد هو ، ولا تطوعه هى لما تريد !

وواجبنا اليوم أن نفعل ذلك بالنسبة لما نحتاج أن نتعلمه من الغرب . . فى التربية وفى غير التربية .

فى التربية نملك المنهج الأعلى ، لأنه المنهج الربانى البرىء مما يعرض للبشر من قصور وخطأ فى الرؤية . . ولكنا نحتاج إلى استنباطه مرة أخرى من منابعه بعد أن نسيناه وهجرناه ، ونحتاج أن نستنبط الوسائل التى تعيننا على تطبيقه فى عالم اليوم ، وهى ما سبقنا إليه الغرب وبرع فيه . ولكن أخذنا للوسائل من هناك لا يجعلنا نتبع مناهجهم بالضرورة ، إنما نطوعها لما نريده نحن من تطبيق المنهج الربانى ، البرىء من الخلل والقصور .

والمنهج موجودة أصوله ومبادئه فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وموجودة صورته العملية التطبيقية فى عمل الرسول ﷺ فى تربية أصحابه . . ثم إنه فى تراثنا كثير من الكتابات النافعة نسيناها وأهملناها فى فترة انبهارنا ، وظننّا أنها أمور حديثة كلها ، لم يفطن إليها إلا الغرب ، ولم يتعرف عليها إلا الغرب !

سنجد فى كتابات الماوردى ، والقابسى ، والغزالى ، وغيرهم ، ماسنفاجأ بأنهم تنبهوا فى عصرهم المتقدم إلى قضايا تربوية وتعليمية كنا نحسب أنها لم تعرف إلا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ! وكتبوا فيها كتابة علمية مبلورة محددة نتيجة خبرتهم واجتهادهم .

والحصيلة التربوية لهذا المنهج ـ متمثلة فى الجيل الذى رباه رسول ﷺ ـ هى « الإنسان الصالح » فى أعلى صورة يكون عليها الإنسان الصالح فى واقع الأرض .

إنسان يؤمن إيمانا صادقا بالله واليوم الآخر ، يعيش بإيمانه فى واقع الحياة الدنيا ، فيبذل فيها أقصى ما يبذل الإنسان من النشاط ، دون أن تكون الحياة الدنيا فتنة له تصرفه عن ربه وآخرته .

إنسان متوازن . . أجمل ما فيه توازنه .

توازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة . توازن بين نوازع الجسد ونوازع الروح . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن بين الضرب فى مناكب الأرض سعيا

وراء الرزق والمتاع ، وبين الترفع على متاع الأرض رجاء الفوز برضوان الله فى الآخرة، فلا يطغيه السعى ، ولا تقعد به الرهبانية . توازن بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس . توازن بين العقل والإيمان . توازن بين الشدة فى الحق وسماحة الأخلاق ولين الجانب . .

إنسان مجاهد . . يعلم أنه لابد من الجهاد من أجل التمكين فى الأرض . فلا يجنح إلى الترف الذى يؤدى إلى الترهل والطراوة والعجز . . ويكون مستعدا للفداء فى أية لحظة بنفسه وماله ، لا يتردد فى العطاء .

إنسان عامل . . يعلم أنه لابد من الكدح فى الحياة ، وتحمل الكَبَد من أجل الوصول .

إنسان عزيز . . عزيز بالإيمان بالله ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وأنه لا يصيب الإنسان إلا ما قدره الله له ، فلا يذل من أجل قضاء حوائجه ، ولا يهين نفسه من أجل متاع الأرض الزائل .

إنسان متعاون متكافل، سهل الالتحام مع المجموع ، دون أن يذوب فيه . .

إنسان عفيف عن ارتكاب الكبائر ، سريع التوبة حين يخطئ ، كثير الاستغفار . .

هكذا كان الرعيل الذى رباه رسول ﷺ فى عالم الواقع . .

ومعلوم أن هذا المستوى الرفيع كان هو مستوى الصفوة ، وليس كل الناس ، حتى فى عهد الرسول ﷺ .

ومعلوم كذلك أننا قد لا نصل أبدا إلى تكوين جماعة من البشر على مستوى تلك الصفوة الفريدة فى التاريخ . .

ولكن المنهج الإسلامى هو هو لكل مستويات البشر . . كل يأخذ منه قدر ما يطيق ﴿ولكلٍّ درجات مما عملوا﴾ [1] فمن أطاق الصعود إلى أقصى القمة فالمنهج معه يعاونه ويمده ويغذيه . . ومن قعدت به قدراته ففى حدود قدراته ، بشرط ألا يهبط عن الحد الأدنى المفروض . . وحتى حين يهبط ـ مع المجاهدة ـ فهو فى رحمة الله ما يزال ، لا يطرده الله من رحمته وهو يستغفر ويتوب :

---

(١) سورة الأنعام [١٣٢] .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فا ستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[١] .

ولكن القيمة العملية للنموذج الأعلى هى أن يبقى حافزا دائما لمحاولة الصعود ـ مادام قابلا للتطبيق الواقعى ولو فى أفراد متناثرين ـ ومحاولة الصعود هى خير دائما من القعود ، لأن القعود ييسر الانزلاق إلى الحضيض !

ذلك هو المنهج الربانى . .

﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ [٢] .

ومهمة المشتغلين بالتأصيل الإسلامى فى مجال التربية هى إعادة اكتشاف المنهج ، وتفصيل الحديث فى جوانبه المتعددة ، وفى شموله وتوازنه ، مع محاولة إجراء التجارب العملية التى توصل إلى تحويل المنهج من نظريات إلى واقع قابل للتطبيق .

وذلك يحتاج ـ بداهة ـ أن يكونوا هم أنفسهم عميقى الإيمان بالمنهج ، واعين فى الوقت ذاته إلى مكنوناته ، مجتهدين فى اكتشاف أسراره ، جادين فى الدعوة إليه ومحاولة تطبيقه .

ولن تكون مهمتهم سهلة من جانبين : الانبهار بما عند الغرب ، الذى يصل إلى حد الفتنة ، وبعد المسلمين فى واقعهم المعاصر عن حقيقة الإسلام .

ولكنه جهاد . . يبذلون فيه جهدهم ويتطلعون إلى الأجر عند الله . . ولا يخذّلهم أن يروا إعراض المعرضين ، ولا سخرية المستعبَدين للغرب ، الذين لا يطيقون مجرد الحديث عن الإسلام !

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [٣] .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٥-١٣٦] .

(٢) سورة البقرة [١٣٨] .

(٣) سورة آل عمران [١٣٩] .

(٥)
فى الدراسات النفسية

نواجه فى عملية التأصيل الإسلامى فى الدراسات النفسية عدة قضايا وافدة من الغرب ، لابد من بحثها ، وبيان موقفنا منها ، لأنها تغزو أفكارنا ، وتؤثر تأثيرا كبيرا فى طلابنا الذين يدرسون العلوم النفسية على طريقة الغرب ، وإن كان الذين يدرسون لهم ينطقون بالعربية ، ويحملون أسماء إسلامية !

وقضية الموضوعية فى الدراسات النفسية ، وقضية الأبحاث التجريبية قد تكونان من أشد الوافدات تأثيرا على الدارسين فى المجالات النفسية ، بالإضافة إلى علم النفس التحليلى والمفاهيم التى يقدمها فى علم النفس .

* * *

تقوم دعوى الموضوعية فى الدراسات النفسية على أساس أن معظم أبحاث علم النفس اليوم قد أصبحت تجريبية ، تجرى فى المعمل ، ويقوم الباحثون بتحليل النتائج تحليلا « علميا » فلا يكون لهم فيها موقف ذاتى . إنما تفرض التجارب نتائجها بنفسها ، ودور الباحث محصور فى بيان النتائج المستخلصة بعد إجراء التحليلات العلمية على التجربة ، وعمل الإحصائيات اللازمة التى تبين مدى مصداقيتها . .

وهذا المنهج فى الدراسات النفسية ـ على كل ما يقدم من معونة للدارسين ، وخاصة فى مجال التعليم ، وفى مجال تعليم الصغار على الأخص ـ مملوء بالثغرات التى يجب أن يتجنبها التأصيل الإسلامى .

وقد أشرنا إلى بعض هذه الثغرات من قبل فى الحديث عن بعض الدراسات الاجتماعية ، وهى بالنسبة لعلم النفس أجدر بالذكر ، وأولى بالانتباه .

فإذا تصورنا النفس البشرية طبقات ـ أو مقامات ـ فأى طبقاتها هى التى يمكن أن تدخل المعمل ، ويتم فيها التجريب ؟ لا شك أنها الطبقات القريبة من الحس ، كمعامل التعب ، ومعامل الانتباه، وقياس الذكاء ، والميول التى يمكن أن تشاهد أو تحصى أو

تقدم عنها استبيانات (على فرض أمانة المشاركين فى الاستبيانات فى تقرير حقيقة أوضاعهم ، وعدم اللجوء إلى التظاهر بما يعتقدون أنه مستحسن عند الناس !) .

ولكن هل تنتهى النفس البشرية عند هذه المقامات ؟ وهل هذا هو أهم أو أثمن ما فى النفس البشرية ؟

حقا إننا من الوجهة العملية قد نستفيد فوائد كثيرة من مثل هذه التجارب ـ وخاصة فى مجال التعليم ـ لأنها تجعلنا على بينة من أفضل وسائل الأداء لتحقيق الهدف الذى نريد تحقيقه ، فلا نضيع جهدا يمكن أن نوفره ، ولا نبدد طاقة يمكن أن نستغلها فيما هو أفضل .

نعم ! ولكن . . فى نطاق محدود من النفس ، وجوانب محدودة من الحياة!

ولاشك أن جنوح الغرب فى واقعه المعاصر إلى الجانب النفعى (البراجماتى كما يسمونه Pragmatic) هو الذى جعل هذه التجارب ـ ونتائجها ـ تجد صدى واسعا عندهم ، لأنها تلبى أهدافهم فى المحيط الذى يعيشونه ويهتمون به . .

ولكن هل هذا هو « الإنسان » كما يجب أن يكون ؟

هل تقف اهتمامات « الإنسان » السوى عند الأوضاع المادية والمجالات النفعية ؟ أو عند الحياة الدنيا ؟

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم.. ﴾[1] .

﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [2] .

فلو رفعوا اهتماماتهم ـ كما ينبغي للإنسان السوى أن يفعل ـ فهل تلبى تلك التجارب كل أهدافهم ؟

هل جربوا ـ مثلا ـ تأثير العقيدة فى الإنسان ؟!

وأنّى لهم ذلك وهم لا يملكون عقيدة صحيحة أولا ، ولا يهتمون بها ثانيا ، ولا يرون لها أثرا واقعيا فى حياتهم ؟! .

إن تأثير العقيدة الصحيحة فى الإنسان لهو من أهم موضوعات علم النفس الإسلامى، ومن أوسع مجالات الدراسة فيه ، وهو علم « تجريبى » ولكن مجال

---

(١) سورة النجم [٢٩ـ ٣٠] . (٢) سورة الروم [٧] .

التجربة فيه ليس هو المختبر النفسى الضيق الذى يجرون فيه تجاربهم ! إنما هو التاريخ ! التاريخ باتساعه منذ كان فى الأرض مؤمنون ، أى منذ آدم عليه السلام ونوح من بعده . . ولكن أبرز نماذجه وأروعها وجد فى أمة محمد ﷺ . . ووعاها التاريخ .

إن الحديث فى هذا الموضوع حديث دائم على ألسنة الدعاة . . ولكنه لا يخص الدعاة وحدهم ، وليس حكرا عليهم . إنه « علم » لأنه «واقع» ، وليس واقع فرد معين ، بل أفراد ، بل جماعات ، بل أمة . . واقع فذ لا يمكن إغفاله ولا إغفال دلالاته . وعالم النفس المسلم لابد أن يعطيه ما يستحق من الاهتمام من الوجهة العلمية البحتة ، ثم من أجل إيحاءاته التربوية وهى ظاهرة للعيان .

ترى كم خصصنا له من دراساتنا ونحن ننقل علم النفس عن الغرب المنحل ، الذى يعيش بلا عقيدة ؟

نعم ! إن علم النفس الغربى ، وعلوم التربية الغربية لا تغفل هذا البحث إغفالا كاملا - فهو أمر بشرى لا يمكن تجاهله ولا يمكن إغفاله مهما كابر المكابرون - ولكنهم يعطونه حيزا هامشيا ، على قدر ما يرون أهميته فى حياتهم ، أو على قدر ما يرغبون أن يكون له من الأهمية فى حياتهم ! أما الباحث المسلم فأمره مختلف ، فحياته قائمة على العقيدة ، وتاريخه هو تاريخ عقيدته ، ورفعته وهبوطه متعلق بعقيدته ، ومصيره فى الدنيا والآخرة مرتبط بالعقيدة . . فالحيز الذى ينبغى أن تشغله من فكره ، ودراسته ، وتجاربه ، وعلومه ينبغى أن يكون بمقدار ما لها من الأهمية فى ذلك كله .

ولاشك أن الجيل الأول رضوان الله عليهم هم أبرز النماذج التاريخية لأثر العقيدة فى النفوس . فهم الذين نقلتهم العقيدة الصحيحة تلك النقلة الهائلة من الجاهلية إلى الإسلام . . من الضياع إلى الوجود . . من الهامشية إلى المركزية . . من الجهل إلى المعرفة . . من الشتات إلى التجمع . . من الظلمات إلى النور . وهم أصلح النماذج للدراسة فى هذا الموضوع . ولكنهم ليسوا وحدهم فى التاريخ حتى يقول قائل إنهم نموذج لا يقاس عليه . . إنما هم نموذج متكرر على مدى التاريخ - بدرجات مختلفة - وهم الذين يكتبون أروع صفحات التاريخ !

فالذين غيروا ميزان الحرب فى حطين تحت قيادة صلاح الدين لم يكونوا من ذلك الجيل الأول . والذين غيروا ميزان الحرب فى عين جالوت تحت صيحة « واإسلاماه» لم يكونوا من الجيل الأول . والذين هزموا الروس فى أفغانستان وفى الشيشان لم يكونوا

من الجيل الأول . والذين يحتملون ما لا يحتمل من ألوان التعذيب الوحشى فى سجون الطغاة ويظلون مصرّين على عقيدتهم ليسوا من الجيل الأول . . إنما هى ظاهرة تتكرر كلما وجد مؤمنون فى الأرض ، والدارس المسلم أولى الناس بأن يدخلها فى دراساته النفسية ، رضى « أهل الفن ! » أو أبوا ، واعترفوا أو لم يعترفوا بالنتائج التى تصل إليها الدراسة !

* * *

وهذا ينقلنا إلى الثغرة الثانية فى التجارب النفسية التى يجريها الغرب ، ويستنتج منها معلوماته عن النفس الإنسانية (وقد سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة من قبل) .

هل العينة التى يجرون عليها تجاربهم ممثلة للنوع كله تمثيلا صادقا بحيث تعمم النتائج المستخلصة منها على كل البشرية ، ويقال ـ بحق ـ هذه هى النفس البشرية ؟!

إنها بحكم الواقع محصورة فى هذا الجيل ، وفى بقعة واحدة من الأرض ، هى التى تجرى فيها التجارب فى الوقت الحاضر . فمن قال إن الغرب هو كل البشرية ؟ ومن قال إن الحاضر هو كل التاريخ ؟! وبالتالى : من يقول إن النتائج التى تستخلص من هذه التجارب نتائج نهائية كالنتائج التى تجرى على المادة ، أو حتى على الحيوان ؟

إنما ينقصها لكى تكون معبرة عن هذا الجيل ـ ودع عنك تمثيلها للبشرية كلها فى جميع أجيالها ـ أن تجرى فى أماكن مختلفة من الأرض ، من بيئات مختلفة ، من ثقافات مختلفة ، من عقائد مختلفة ، من رواسب تاريخية مختلفة ، ثم يقال فى النهاية ـ فى تواضع « علمى » تمليه روح العلم ذاته ـ هذا ما وجدناه فى تجاربنا فى هذا الجيل ، فى المجالات التى يمكن أن تجرى عليها التجارب من مجالات النفس الإنسانية ، ونتائجها مع ذلك ظنية لا يؤمن تعميمها على الواقع كله ، لا فى هذا الجيل ولا فى أى جيل !!

هل معنى ذلك أن نلغى الأمر كله وننفض أيدينا منه ؟!

كلا ! ولا يجوز لنا أن نهدر الكم الهائل من المعلومات التى حصلنا عليها من هذه التجارب ، ولا الفوائد العملية التى جنيناها منها ، وخاصة فى مجال التعليم ، فضلا عن مجالات كثيرة أخرى . . إنما فقط علينا أن نتواضع بعلمنا ، ونعلم منذ البدء أن هناك آفاقا من العلم بالنفس البشرية لا تصل إليها تجارب المعمل ، ولابد من الرجوع فيها إلى علم فوق علم الإنسان .

* * *

ثالثة الأثافى هى علم النفس التحليلى ، الذى يمكن أن نطلق عليه بحق علم تبرير الجريمة ! أو علم تزيين الجريمة !

لقد ذهب فرويد مؤسس هذا العلم ، وذهب الاهتمام الذى كان قائما حوله حتى الستينيات من هذا القرن فى الغرب ، ولكن العلم الذى أسسه ـ إن سمى هذا علما ـ مازال يعيش فى العيادات النفسية المنتشرة فى الغرب ، والتى أصبح من الأمور المعتادة فيه ـ إن لم يكن من الضرورات ـ أن يرتاد الإنسان ـ فتى أو فتاة ، رجلا أو امرأة ـ إحدى العيادات النفسية على فترات تختلف باختلاف « حالة » كل شخص ، وقد تصل أحيانا إلى مرة كل أسبوع !

وفى المعتاد يقول الطبيب النفسى للمريض الذى يعالجه « أنت تعانى من الكبت . من عقدة نفسية أو أكثر . انطلق ! هذا علاجك » !

عقدة التحليل النفسى أنه يسقط « الإنسان » ، إذ يسقط الإرادة الضابطة فى الإنسان ، ويفسر الأمور على أساس جبرية نفسيه لا تدع للإنسان مجالا للاختيار . . هذا فى مجال تبرير الجريمة . ثم يدعو إلى إطلاق الشهوة البهيمية على أنها علاج للكبت . . وهذا فى مجال تزيين الجريمة . وفى كلا المجالين يتعامل مع الحيوان وليس مع الإنسان .

وعلى الرغم مما تكشف للناس من التزييف الواضح فى نظريات فرويد الخاصة بالتفسير الجنسى للسلوك البشرى ، ومن اعتماده فى نظرياته على المرضى والشواذ ، وتعميم الملاحظات المستقاة من حالاتهم على الأصحاء والأسوياء [1] ، فما زالت السموم التى بثها قائمة فى مجالات كثيرة ، من بينها العيادات النفسية التى أشرنا إليها ، ومن بينها الإعلانات التى يستخدم فيها الجنس للإغراء ، والتى تبثها وسائل الإعلام على مدار الساعة فى كل الأرض !

وحين توارى فرويد عن الساحة ـ أو عن مكان الصدارة فى الساحة ـ فقد خلفته مدرسة أخرى لا تقل عنه سوءاً فى تصورها وتصويرها للإنسان . وهى المدرسة السلوكية التى لها السيادة اليوم فى الدراسات النفسية ، والتى تعتمد اعتمادا أساسيا

---

(١) لا يرى فرويد أن هناك فى البشر من هو سَوِىّ ! ويقول صراحة إن كل الناس مصابون بهذا النوع أو ذاك من الأمراض النفسية والعصبية . وقال فى كتاب "Three contributions" « ص ٣٢ » نحن جميعا مصابون بالهستريا إلى حد ما We are all hysterical to some extent! .

على تجارب المعمل ، ولكنها تستمد تجاربها أساسا من عالم الحيوان ، ثم تجريها ـ بنجاح ! ـ على عالم الإنسان !

كلتا النظرتين : نظرة فرويد ونظرة السلوكيين ، تفسر جوانب من الإنسان ، ولكنها لا تحيط به ، ولا تستطيع أن تفسر المقامات العليا من النفس البشرية ، التى لا تصل إليها « جنسيات » فرويد ، ولا تجارب السلوكيين .

* * *

لا مناص لنا عند التأصيل الإسلامى فى الدراسات النفسية من الرجوع إلى المصادر التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لتكون أساسا لأبحاثنا ومنطلقا لدراساتنا وتجاربنا .

يقول الخالق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ (١) .

فنعلم من هذا المصدر الموثوق أن الإنسان قد ركب من عنصرين : قبضة الطين ونفخة الروح .

ثم نعلم من ذات المصدر أن نفخة الروح منحت قبضة الطين صفات لم تكن لها من قبل ، نترجمها بمصطلحاتنا اللغوية بأنها الوعى والإرادة والحرية ، التى تأتى الإشارة إليها فى القرآن الكريم فى لفظة « الأفئدة » ومرادفاتها .

وأن الله أودع فى فطرة الإنسان أن يعرف خالقه ويتوجه إليه بالعبادة (أى الدين) :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ (٢) .

﴿ .. فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٣) .

وأن بعض الفطر تعتل « فيطبع » الله على قلوبها ، فتضل عن خالقها فتعبد سواه .

---

(١) سورة ص [٧١ـ٧٢] .
(٢) سورة الأعراف [١٧٢] .
(٣) سورة الروم [٣٠] .

وأن الله خلق فى الفطرة نوازع شتى ، هى بمثابة الدوافع التى تدفعه للعمل والنشاط ليحقق مهمة الخلافة التى خلق لها ، والتى من مهامها عمارة الأرض :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (١) .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (٢) .

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ (٣) .

ولكنه لم يتركه مع هذه الشهوات بلا ضابط ولا قدرة على الضبط ، فإن « الأفئدة » التى جعلها الله للناس هى أداة الضبط التى يضبط بها الإنسان شهواته . وهى فطرية كالدوافع سواء بسواء :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٤) .

والإنسان السوى يستخدم الدوافع والضوابط معا فيتوازن وتستقيم حياته . أما إذا أحجم عن استخدام الضوابط الفطرية فإنه يهلك بشهواته ، تشقيه فى الدنيا وتورده النار فى الآخرة .

وقد خلق الله الإنسان لعبادته :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٥) .

و « الصحة النفسية » بالنسبة له هى أن يكون كيانة كله : فكره ومشاعره وسلوكه فى الاتجاه الذى يحقق غاية وجوده ، أما إذا انحرف بفكره ومشاعره وسلوكه عن تحقيق غاية وجوده ، فقد يستمتع ولكنه متاع الحيوان ، ولابركة له فى حياته ولا اطمئنان :

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (٦) .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٧) .

ثم إن الإنسان ليس أحادى الاتجاه كالحيوان ، إنما هو مزدوج الاتجاه (كما أنه مزدوج

---

(١) سورة البقرة [٣٠] .
(٢) سورة هود [٦١] .
(٣) سورة آل عمران [١٤] .
(٤) سورة النحل [٧٨] .
(٥) سورة الذاريات [٥٦] .
(٦) سورة محمد [١٢] .
(٧) سورة طه [١٢٤] .

التركيب) ومن أجل ذلك فإن له فى كل لحظة وفى كل حالة طريقين اثنين يختار أحدهما ، أحدهما يوصف بأنه خير والآخر يوصف بأنه شر ، وقد وهبه الله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحدهما :

﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ (١) .

والطريق الذى يوصف بأنه خير هو الذى يكون فيه ملتزما بأوامر الله ونواهيه ، وعندئذ يكون قائما بواجب الشكر لله . أما الطريق الذى يوصف بأنه شر فهو الذى يكون فيه عاصيا لله ، كافرا بنعمته :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (٢) .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ (٣)

وبسبب وجود هذه الخاصية فيه ، وهى أن له طريقين ، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما فإن أعماله ـ خلافا لأعمال الحيوان ـ ذات قيمة أخلاقية مصاحبة لها ، لا تنفك عنها ، فالخاصية الأخلاقية جزء من فطرة الإنسان ، أى أنه كائن أخلاقى بطبيعة تكوينه ، وليست الأخلاق ـ من حيث هى ـ مفروضة عليه من خارج كيانه كما تزعم بعض المدارس الغربية . إنما الذى يمكن أن يكون مفروضا عليه من خارج كيانه هو المعايير التى تحدد ما هو خير وما هو شر ، لا إعطاء الصفة الأخلاقية للعمل ، كما يزعم فرويد ودوركايم والسلوكيون . وحتى المعايير التى يضعها الله سبحانه وتعالى بصفة أنه سبحانه هو الخالق ، وأنه هو العليم الحكيم ، فليس كلها يفرض على الإنسان من خارج كيانه ، فإن الفطرة السليمة تتجاوب معها ، وتجد أنها مقبولة لديها ، لأن الله أودع الفطرة استحسان الحسن واستقباح القبيح بصفة عامة ، فأصبح اللقاء بين الفطرة ودين الفطرة سهلا ميسرا محببا لذوى الفطر السليمة على الرغم مما فيه من التكاليف ، وإن كان الهوى يغلب النفس أحيانا فيختل تقديرها للخير والشر ، أو يجىء الاختلاف بسبب عدم الإحاطة وقصور الرؤية البشرية عن تقدير النتائج التى يمكن أن تترتب على العمل . . فيكون الملجأ فى جميع الحالات هو اتباع ما أنزل الله .

---

(١) سورة الشمس [٧ـ١٠] .

(٢) سورة الإنسان [٣] .　　　(٣) سورة البلد [١٠] .

﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [1] .

كذلك يلاحظ أن فى تكوين النفس الإنسانية أدوات للتوازن تحفظ اتزان الإنسان حين تكون بمعاييرها التى أنزلها الله ، مما يمكن أن نسميه « الخطوط المتقابلة فى النفس الإنسانية » مثل الحب والكره ، والخوف والرجاء ، والإيمان بالمحسوس والإيمان بما لا تدركه الحواس ، والفردية والجماعية ، والواقع والخيال ، والسلبية والإيجابية . . وكل منها قوة ضاغطة أو جاذبة ، فإذا كان كل منها فى مكانه الصحيح اعتدل الإنسان وتوازن فى نقطة الوسط المتوازن التى يكون الإنسان فيها فى أحسن تقويم ، أما إذا اختلت أو اختل بعضها فى النوع أو المقدار فهنا يفقد الإنسان توازنه ، ويحتاج إلى تقويم [2] .

* * *

تلك خلاصة سريعة للتصور الإسلامى للنفس البشرية . وواضح أنه يختلف عن التصور الغربى السائد اليوم فى أمور أساسية ، وإن التقى معه فى بعض الجزئيات . ومهمة الباحث المسلم فى الدراسات النفسية أن يستحضر معه دائما هذا التصور الإسلامى ، ثم ينطلق منه ليبحث فى جميع المجالات التى يشملها علم النفس ، وخاصة فى مجال التربية والتعليم ، وفى مجال الدعوة ، وهى التى تهم الباحث المسلم بصفة رئيسية .

أما التفصيلات فالمجال واسع لدراستها ، وإجراء التجارب عليها ، وتفسيرها ، ومحاولة تقنينها . وهو لا يبدأ فى هذا الأمر من فراغ ، فكثير من علماء الإسلام السابقين قد خاضوا فى هذه المجالات وأدلوا بدلوهم فيها ، وعلينا أن نعيد اكتشاف ما كتبوه ، ثم نضيف إليه ما يهدينا إليه البحث المستنير .

وإن من الموضوعات التى يجدر بالباحث المسلم أن يعكف عليها ويوليها اهتمامه ، هذه الموضوعات على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

- تأثير العقيدة فى تشكيل النفس الإنسانية .
- تأثير العقيدة فى إنشاء حالة الاتزان العاطفى والسلوكى عند الإنسان .

---

(١) سورة البقرة [٢١٦] .

(٢) اقرأ إن شئت فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » من كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

ـ تأثير العقيدة فى دفع الإنسان إلى بذل الجهد والمثابرة عليه .

ـ الظاهرة الروحية عند الإنسان (التليباثى ـ الاستشفاف ـ الرؤيا الصادقة) .

ـ الإيمان بالغيب عند الإنسان وتفرده به عن الحيوان .

ـ مكان الدين من الفطرة .

ـ نشأة الضمير عند الطفل .

ـ نشأة القيم العليا فى الفرد والمجتمع .

ـ دور العقيدة فى علاج الاضطرابات النفسية والعصبية .

ـ التكوين النفسى للرجل والمرأة ، وعلاقة هذا التكوين الفطرى بالدور المنوط بكل منهما ، وهل هما متماثلان أم متكاملان مع الاختلاف .

وفى كثير من هذه الموضوعات سيجد الباحث المسلم نفسه رائدا . . وسيجد نفسه فى أحيان كثيرة يسبح ضد التيار . فليعزم العزمة الصادقة وليمض فى الطريق!



بين الواقع والمثال

ربما يكون قد اتضح لنا من الجولة السريعة التى قمنا بها فى الفصول السابقة مدى البعد بين الصورة التى ننقلها عن الغرب فى العلوم الاجتماعية وندرسها لأبنائنا فى المدارس والجامعات، وبين الصورة التى يفترض أن تكون لدى المسلم الذى يستمد مفاهيمه من الإسلام، ويكون قد تبين لنا فى الوقت ذاته مدى حاجتنا إلى التأصيل الإسلامى لهذه العلوم ، وإن بدت المفاهيم الإسلامية غريبة على كثير من الناس الذين تعودوا أن ينظروا إلى الأمور بعين الغرب، ولا يرون فيها انحرافا ، ولا يرون أنها تحتاج إلى تعديل . ففى الغربة الثانية التى تحيط بالإسلام اليوم ، والتى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ قبل أربعة عشر قرنا حين قال : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ »[1] ، تبدو المفاهيم الإسلامية كأنها مثل غير قابلة للتطبيق فى عالم الواقع ، ويبدو الواقع المنحرف كأنه هو الأصل فى الأشياء ! وهذه النظرة بالذات هى أول ما يسعى إلى تصحيحه التأصيل الإسلامى فى هذه العلوم!

وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى العزلة عن العالم ! فأنا لم أدْعُ إلى العزلة قط ، ولم أمارس العزلة ، بل إنى أجتهد بقدر وسعى أن أطلع على أفكار القوم وممارساتهم ، وأجد ذلك أمرا ضروريا لى ، بل أقول ـ أكثر من ذلك ـ إن اطلاعى على أفكار القوم وممارساتهم هو الذى نبهنى إلى كثير من مجالى العظمة فى دين الله ، حين أعقد المقارنة بينها وبين ما يجرى فى الجاهلية المعاصرة ، تصديقا لقول الفاروق رضى الله عنه : «لا يعرف الإسلام (أى لا يعرفه على حقيقته) من لم يعرف الجاهلية ! » فأنا أدعو إلى الاطلاع على ما عند الغرب ، ولكنّ هناك فرقا بين اطلاع المأخوذ ، الذى يتلقف كل

---

(١) سبقت الإشارة إليه .

شئ يجده هناك كأنه غنيمة عثر عليها ، وبين اطلاع المستبصر بنور الإسلام ، الذى يعرض عن الغث ، وينتقى الثمين .

أما الغربة فقد وجهنا رسول الله ﷺ إلى إزالتها ، فقال فى الحديث الآنف الذكر ، بعد أن أخبر عن غربة الإسلام الثانية « فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتى » [١] .

ولن تتأتى إزالة الغربة إلا بالدعوة . .

والدعوة كما أشرت فى أكثر من كتاب هى بيان حقيقة الإسلام ، ثم التربية على مقتضيات الإسلام [٢] . والتربية تشمل تثبيت العقيدة الصحيحة ، وتقويم السلوك بما يتناسب مع مقتضيات هذه العقيدة .

والثقافة الصحيحة هى جزء من التربية المطلوبة . فكما ندعو إلى تصحيح العقيدة وتقويم السلوك ، ندعو كذلك إلى تقويم الثقافة لتتمشى مع العقيدة الصحيحة والسلوك الصحيح .

ونعلم بطبيعة الحال أن هذا الأمر لا يتم بين يوم وليلة ! فلا بد من جهاد طويل لإرجاع الأمة إلى حقيقة الإسلام التى غفلت عنها ردحا من الزمن ، فأصابها ما أنذرها به رسولها ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » [٣] .

وجزء من حالة الغثاء التى تعيشها الأمة اليوم ، راجع إلى غلبة الفكر الدخيل عليها ، وتلقفها له على أنه طريق الخلاص ، بينما أصحابه أنفسهم قد بدءوا يحسون بما فيه من عوج ، ويبحثون عن البديل !

وقد أثبتنا نموذجا من ذلك الإحساس بضرورة التغيير فى مقدمة الكتاب ، حين ذكرنا مقتطفات من محاضرة الأمير تشارلس ولى عهد بريطانيا ، التى قال فيها إن الغرب فى حاجة إلى معلمين مسلمين يعلمونه كيف يتعلم الناس بقلوبهم كما يتعلمون بعقولهم !

---

(١) رواه الترمذى . (٢) انظر على سبيل المثال « واقعنا المعاصر » .

(٣) سبق ذكره .

وأضيف هنا أن هناك اتجاها فى غرب أوربا وأمريكا ، يتزايد أنصاره كل يوم ، يدعو إلى فصل البنات عن البنين فى جميع مراحل التعليم من الابتدائى إلى الجامعة ! واتجاها متزايدا إلى ما يطلقون عليه « التعليم المنزلى : Home Schooling»، وقاية للأولاد والبنات من مخاطر الاختلاط ، ونحن فى بلادنا مازلنا ندعو إلى مزيد من الاختلاط !

نعم ! هنالك بدء يقظة على مستوى الأرض ، بدأت تحس بالعوج ، وتبحث عن البديل . . ولا يعلم إلا الله وحده مصير هذه اليقظة ، والمدى الذى تحتاج إليه ، وإن كان فى تقديرنا أنها قد لا تؤتى ثمارا واضحة قبل قرن من الزمان ، تنفض فيه البشرية عن نفسها ما غرقت فيه من الدنس الفكرى والسلوكى ، وتقبل البديل . .

والبديل هو الإسلام !

هو الذى أنزله الله ليصحح خطى البشر على الأرض ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(1) .

والمسلمون أولى الناس أن يعوا إسلامهم ، ويرجعوا إليه .

والتأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية جزء من الوعى المطلوب ، يحتاج أن يُبْذَلَ فيه الجهد ، ليؤتى ثماره مع الدعوة إلى الله ، ولو على المدى الطويل . . فطريق الدعوة كله طويل ، ولكنه هو الطريق الواصل بإذن الله :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(2) .

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾(3) .

---

(1) سورة المائدة [١٥-١٦] .

(2) سورة الصف [٩] .

(3) سورة الأنعام [١٥٣] .



الفهـــرس



رقم الإيداع : ٩٨/١٨٦٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 09 - 0423 - 6

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)





- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- منهج التربية الإسلامية
- منهج الفن الإسلامى
- جاهلية القرن العشرين
- الإنسان بين المادية والإسلام
- دراسات قرآنية
- هل نحن مسلمون
- شبهات حول الإسلام
- فى النفس والمجتمع
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- مذاهب فكرية معاصرة
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- كيف نكتب التاريخ الإسلامى
- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- دروس من محنة البوسنة والهرسك
- العلمانيون والإسلام
- هلم نخرج من ظلمات التيه
- واقعنا المعاصر
- حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية